36

أوائل أيار/مايو قام جفري بفتح قناني الشمبانيا والوسكي في بغداد. ظل دائباً على ممارسة الضغط على الشيعة ليل نهار بغية إقناعهم بضرورة إشراك المزيد من السنة في العملية الحكومية الجديدة. ظل يقول إن هؤلاء هم الزبائن الذين يمارسون التمرد. ضموهم! أخيراً وافق زعماء الشيعة على الاقتراح وأضافوا تسعة من السنة إلى الحكومة.

ومن ثم، قبل 36 ساعة من موعد وصول رايس إلى العراق في زيارتها التي طال انتظارها ولكن السرية، انهار كل شيء.

أدرك جفري أنه لم يكن قد أقنع الشيعة بأي شيء. فهم لم يستوعبوا النقاط الأكبر عن المصالحة، التواصل والاحتضان. أذعنوا في البداية لأنه كان في مواجهتهم مباشرةً قائلاً: "يجب أن تفعلوا هذا".

ما لبثوا أن عادوا إلى حيث كانوا قبل شهرين حين كان نغروبونتي قد غادر العراق. كان من المتوقع وصول رايس في 15 أيار/مايو. كان جفري غاضباً.

سافرت رايس على طائرة الجنرال أبي زيد، مع حجرة خاصة في المؤخرة. ومن أي منطلق أمني ربما كانت تلك الطائرة الفضلى لتجنب لفت الأنظار، لأنها كانت دائمة الدخول إلى العراق والخروج منه. بدايةً طارت إلى قلب اربيل الواقعة على مسافة 200 ميل إلى الشمال من بغداد في المنطقة الكردية للقاء الزعيم الكردي مسعود البرزاني. كان ذلك نوعاً من الإهانة الموجهة إلى رئيس الوزراء الجعفري، إذ لم يكن رئيس الحكومة المحطة الأولى، إلا أن الأكراد كانوا مفتاحاً لعملية المصالحة.

تحدثت رايس مع البرزاني عن مدى أهمية إقدام الجميع على تقديم التنازلات والقبول بالمساومة. بالنسبة إلى بوش. كان لابد من ضم السنة واحتضانهم. عبرت عن القلق إزاء قيام السوريين والإيرانيين خصوصاً، على حدٍّ سواء، بدس أنوفهم في شؤون العراق.

"الطرفان عدوان" قال البرزاني. ثمة العدو الغبي وهو السوري، وهناك بعد ذلك العدو الذكي وهو الإيراني الذي يمثل مشكلة طويلة الأمد.

اتفقت رايس معه في الرأي.

مدة الطيران إلى بغداد كانت 45 دقيقة. "إنها مسألة احتواء واستيعاب". صحيح، اعترفت رايس، أن السنة لم يكونوا قد شاركوا في انتخابات 30 كانون الثاني/يناير. إذ جرى إرهابهم وتخويفهم، أو بادروا هم إلى المقاطعة. "الآن نطلب منكم أن تزيحوا ذلك جانباً وتسعوا عملياً إلى الاضطلاع بدور الجد الحاضن في اجتذابهم إلى العملية السياسية". أضافت أن من شأن ذلك أن يكون من أصعب الأمور. "غير أنكم ملزمون به" لأن من شأن عدم صيرورتهم جزءاً من العملية السياسية أن يدفعهم إلى تدمير قدرتكم على الحكم".

صار الجميع باستثناء رايس يَكْبون بعد عشرين ساعة سفر. بالفعل أدهشت بعضاً ممن كانوا معها في الرحلة، إذ بقيت جالسة حيث هي دون أن تتحرك قيد شعرة، متأهبة لالتقاط أي كلمة، آلة حقيقية.

الجعفري كان آلته الخاصة – آلة ضبابية. كان اللقاء بالغ الكآبة، ولكن رايس أضفت عليه أفضل ثوب ممكن لاحقاً وأعطت مقابلة مدتها سبع دقائق لأربعة منافذ إعلامية أمريكية ومنفذين عربيين. قالت رايس لأحد مراسلي الان بي سي: "إذا فكرتم بالأمر فإن هذه الحكومة ليست في السلطة إلا منذ وقتٍ قصير جداً. في حقيقة الأمر لم يمض سوى أقل من عام منذ تم بالفعل نقل السيادة إلى الشعب العراقي. وبالتالي ستكون هناك سلسلة من الطلعات والنزلات. لا يتم إنجاز الأمور بين عشية وضحاها".

وبعد ذلك قامت رايس بزيارة غير معلنة إلى مستشفى دعم القتال العسكري ببغداد. بعض الجنود كانوا يحملون آلات تصوير رقمية وطلبوا التقاط الصور مع رايس.

بعد التحدث مع الأطباء والممرضات مرت بالمرأة العراقية البالغة 19 عاماً من العمر التي كانت من فريق الجعفري الأمني. كانت قد ألقت بنفسها على قنبلة كترس بشري. انفجرت القنبلة جزئياً وفقدت الشابة العراقية إحدى ساقيها.

قالت رايس للفتاة: "أنت شابة شجاعة جداً. أنت واحدة ممن ضحوا في سبيل ديمقراطيتكم الجديدة". شكرته الشابة العراقية بهدوء. كانت تلك إحدى المرات الأولى التي كانت رايس قد راودتها مشاعر شخصية حول التضحيات التي كان العراقيون يقدمونها.

في محاولة لإبقاء الزيارة منخفضة الأصداء وبعيدة عن الأنظار قدر الإمكان، مشت رايس في ممر ووصلت إلى غرفة فيها مريض واحد. كان المريض جندياً أمريكياً، في حالة مرعبة، وجهه مغطى بالضمادات، موصول بخط الانعاش، بين الحياة والموت.

كانت رايس في حضرة المعاناة الإنسانية على نحوٍ مباشر - في حضرة التكاليف الحقيقية والشخصية للحرب، لحرب كانت قد نصحت الرئيس بشنها.

فيما بعد قالت رايس لعدد من جهاز العاملين عندها: "يتعين علي أن أكون قادرةً على النظر في عيون أولئك الشباب وأسأل نفسي بأمانة عما إذا كنتُ أعتقد بان ما يتّابدونه من معاناة جديرة، وهل نجعلها نحن كذلك؟ فهؤلاء ليسوا دمى، جنوداً دمى، أفحمهم أحدهم في سوح القتال؛ ليسوا كما تعلمون دمى جنود صغيرة. إنهم بشر حقيقيون زاخرون بالحياة".

"لو كانت ثمة طريقة ما لكسب الحروب وضمان أمن الأوطان دون إقحام الشباب في ظروف تؤدي إما إلى القتل أو التشويه لبادرنا إلى اعتمادها جميعاً".

"غير أن للحروب تكاليفها. وما من شيء يجعلني أكثر غضباً من سماع الناس وهم يقولون: "حسناً، أراد جورج بوش ان يشن الحرب. كان يبحث عن سبب يمكّنه من خوض الحرب". أقول لكم، أنتم لا تستطيعون معرفة حقيقة هذا الرئيس، أو أي رئيس، وما يراه وما يشعر به حين يطّلع على عواقب أفعاله ويبقى تواقاً لخوض الحرب. أعتقد أن ذلك كلام مثير للامتعاض الشديد".

◎ ◎ ◎

راح جفري يحاور انسنة. طلبوا 30 ممثلاً في اللجنة الدستورية، التي كانت المحطة التالية على الطريق إلى الديمقراطية. لماذا 30؟ سألهم. جاء الجواب متمثلاً بأن السنة كانوا - على الأقل - 30 بالمئة من السكان، وربما 40 بالمئة.

رد عليهم جفري: "لا، هذا غير صحيح، أنتم 20 بالمئة من السكان".

تواصل الأخذ والرد. لم يكن السنة قد فازوا إلا باثنين من مقاعد اللجنة الـ 55. وبعد نحو 10 أيام من زيارة رايس وافق الشيعة على توسيع اللجنة الدستورية لضم مزيد من السنة، وبعد مفاوضات دامت أسابيع استقر العدد على 15 عضواً و10 مستشارين من السنة.

عاد زليكوف إلى العراق موفداً من رايس في أيار/مايو 2005 للتركيز على الطريقة المعتمدة من قبل الأمريكيين في تدريب الشرطة العراقية - الحل المحلي لمشلكة الأمر. كانت قد طردت رئيس المكتب المسؤول عن هذا التدريب في وزارة الخارجية. باختصر كان المكتب قد انهار. سافر زليكوف إلى خارج العراق؛ ذهب إلى أمكنة مثل الموصل. كانت الولايات المتحدة قد أوجدت اكاديمية لتدريب الشرطة العراقية بل ووفرت جهة المدربين والمدرسين في المؤسسة. قليل من التدريب، بدلة عسكرية، مسدس والرسالة: "هيا، لقد أصبحت شرطياً". كانت القصة القديمة ذاتها. تمثل معيار التقدم باعداد المدربين. اكتشف زليكوف أن أحداً لم يكن يعرف ما إذا كان عناصر الشرطة "المفبركون" حديثاً حتى قد التحقوا بأمكنة عملهم. لم يكن ثمة أي متابعة ميدانية - وهي حاسمة بالنسبة إلى كل من الشرطة والجيش.

جرى استخدام بضع مئات من ضباط ارتباط الشرطة الدوليين، من الولايات المتحدة بأكثريتهم، للقيام بالتدريب الميداني، غير أنهم لم يكونوا يتوقعون العمل في منطقة قتالية. قاموا بزيارة مخافر الشرطة العراقية، صنفوا البنادق، وقاموا بأعمى التفتيش الروتينية بدلاً من التدريب. لم يكونوا جزءاً من وحدات الشرطة العراقية، حيث يمكنهم أن يكونوا، بالتأكيد، أكثر جدوى، برأي زليكوف.

اكتشف أيضاً مدة ترابط القضايا الشرطية والاستخباراتية، بما فيها نوعية المعلومات الاستخباراتية ومدى قدرة المرء على اكتشاف بؤر التمرد وخطط المتمردين.

تبين لزليكوف أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت متركزة على القاعدة وبقيت ناجحة في استخدام الجانب التقني من الاستخبارات - التقاط الاتصالات، التصوير الجوي وإلخ ... - غير أنها لم تنخرط فعلياً، في الجوانب الرئيسة من عملية الاستطلاع ضد حركة التمرد على المستوى المحلي.

وهذه الاكتشافات لم تكن، في الحقيقة، إلا صدى، ولو أكثر تحديداً ودقة، للإخفاق في الانخراط بالشرطة العراقية المحلية، ذلك الانخراط الذي كان فرانك مر من جهاز العاملين في مجلس الأمن القومي قد حدده لرايس قبل أكثر من سنة، في أعقاب جولته التفتيشية على العراق بتكليف منها. وكلما غاص زليكوف في العمق أكثر زاد اتضاح أمر أن ضباط الارتباط هؤلاء كان يتعين عليهم أن يبقوا منخرطين، أن يعيشوا في قواعد العمليات ويضاعفوا من تفاعلهم الشامل مع الشرطة العراقية.

إلا أن تدريب الخارجية للشرطة لم يكن يشكل سوى ثلث المسعى. فالجنرال بيترايوس كان مسؤولاً عن ثلث ثانٍ من عملية تدريب الشرطة. أما الثلث الثالث فكان عائداً للفرق العسكرية الأمريكية الأساسية المتوفرة على وحدات شرطة عسكرية مستخدمة في ساحات القتال أو مناطق خاصة من الأقاليم والمدن.

أوصى زليكوف بدمج الفروع الثلاثة، وتحويل المسألة من حيث الجوهر على الكتائب والألوية الأمريكية المضطلعة بإدارة العمليات العسكرية وتسيير الدوريات في مناطق معينة. كان قد عكف على دراسة الحركات التمردية، وأدرك أن كل ما كانوا يفعلونه لم يكن سوى استخلاص دروس سبق لآخرين أن تعلموها: السياسة محلية، حتى في أثناء أي عصيان. كذلك كانت ثمة المشكلة القديمة: وحدة القيادة. أناس كثيرون كانوا مسؤولين بما أدى إلى ألا يكون أحد مسؤولاً في النهاية.

في 30 أيار/مايو كان تشيني ضيفاً على برنامج **لاري كنغ المباشر** في قناة السي ان ان (CNN). قال: "أعتقد أنهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، أعني المتمردين". يا له من إنتار كلي للواقع وللتوجه! فالعدد الإجمالي لهجمات المتمردين في نيسان/ابريل كان نحو 1.700، وبلغ عدد القتلى الأمريكيين في الشهر نفسه 52. أما في أيار/مايو فقفز العددان إلى 2000 و2 على التوالي.

لم يكن السناتور الجمهوري النبراسكي المربوع ذو العقلية الجادة البالغ الـ 58 من العمر تشاك هاغل ممن تتكرر دعوتهم كثيراً إلى بيت بوش الأبيض. ومع أن هذا السناتور كان قد صوت لصالح القرار القاضي بإجازة الحرب، فإنه كان ما لبث أن أصبح أحد المنتقدين البارزين لإدارة مرحلة ما بعد الحرب. تعين على البيت الأبيض أن يشمله في الدعوة الخاصة بجميع جمهوريي مجلس الشيوخ إلى الغداء السياسي الأسبوعي يوم الثلاثاء في البيت الأبيض يوم 21 حزيران/يونيو 2005.

كان هاغل رقيباً في الجيش أبلى بلاءً حسناً اكسبه أوسمة في الحرب الفيتنامية وكان يدرك أن استخدام القوة العسكرية هو القرار الأهم والأكثر حسماً بالنسبة إلى أي رئيس أو دولة. قبل غزو العراق بأشهر كان قد طرح على الملأ جملة من الأسئلة مثل: "من يحكم بعد صدام؟" و"هل قمنا بحساب العواقب؟" وفي خطابه يوم 9 تشرين الأول/أكتوبر 2002 الذي أيد فيه قرار الحرب قال بأنه يقر بالالتزام المقدس المطلوب وأضاف: "لا نستطيع أن نقوم بذلك وحدنا... كم عدد الذين يعرفون العراق ويفهمونه

حقاً منا نحن، بوصفه بلداً، وطناً، ودوراً في العالم العربي؟ أنا أقارب مسألة عراق ما بعد صدام ومستقبل الديمقراطية والاستقرار في الشرق الأوسط بقدرٍ أكبر من الحذر، من الواقعية ومن التواضع". وقبل الحرب بشهر واحد قال: "أولاً، ينبغي لأي مرحلة انتقالية في عراق ما بعد صدام أن تتركز على الأمن، الاستقرار الاقتصادي وخلق شروط التغيير الديمقراطي. علينا أن نزيح جانباً الوهم الزائف الذي يشي بأن الديمقراطية خلف المنعطف، في متناول اليد".

منتقلاً بالحافلة إلى البيت الأبيض قبل الغداء، ذهب السناتور إلى صف البوفيه للحصول على وجبة الغداء، ووصل بوش في الساعة الثانية عشرة والنصف.

تحدث الرئيس لمدة 25 دقيقة عن الضمان الاجتماعي، الإنفاق، العُجُوز - عن كل شيء عدا الفيل الكبير في الغرفة.

اعتلى السناتور جون وارنر، رئيس لجنة القوات المسلحة، المنصة، قال أشياء إيجابية ولطيفة عن بوش، وتطرق إلى الفيل. قال وارنر مشيراً إلى وزير الدفاع الأسبق جيمس شليزنجر: "تناولت العشاء مع معلمي السابق حين كنت وزيراً للبحرية. إن معلمي السابق شديد القلق بشأن العراق لأنه يرى تطور بعض أوجه الشبه المثيرة للفزع مع فيتنام".

عندئذ سارع بوش إلى الدفاع مشيراً إلى 9/11، التهديد المستمر للإرهاب، قناعته بأن صدّاماً كان يشكل تهديداً. لا شيء جديد.

وبعد ذلك قال السناتور تد ستفنس، رئيس لجنة التخصيصات: "أريد أن أكرر صدى بعض ما قال وارنر قبل قليل. أعتقد أننا بصدد بعض القضايا الخطيرة على هذا الصعيد".

لاذ بوش بخطابه النظري المتفاصح المألوف عن أن ما جرى كان هو الصواب، وكانوا ملزمين به.

بعد الغداء خرج هاغل مع بوش وابتعدا إلى إحدى الزوايا النائية.

قال هاغل: "سيادة الرئيس، دعني اطرح عليك سؤالاً. أعتقد أنكم هنا في البيت الأبيض تتعرضون بالفعل للتضليل بشأن العراق. هل تحاول الخروج من دائرتك الضيقة، من دائرة مجلس أمنك القومي؟" ثم أضاف التخفيف الضروري. "ليس هذا، بأي من الأحوال، تأملاً لأي عيب أو تأكيداً له. لست هنا بصدد ذلك. أعتقد أن من

المهم بالنسبة إلى الرؤساء، ولاسيما في زمن الحرب، أن يستمعوا إلى بعض الآراء الأخرى – من أناس ربما غير متفقين معك، أو أنت لا تتفق معهم. استدعهم. جالسهم. استمع إليهم. هل تفعل ذلك؟"

"حسناً، ربما أميل إلى ترك ذلك لهادلي".

"أنا أعرف أن مستشارك للأمن القومي يتحدث مع الناس، ولكن هل تتحدث أنت مع الناس؟"

"حسناً، قد يكون متعيناً علي أن أكلم هادلي حول الموضوع".

"اعتقد أن هذا مهم جداً، سيادة الرئيس؛ لابد من الاستماع هنا إلى بعض الآراء الخارجية. لا لشيء إلا لاختبار نظرياتك وسلوكك". أتى هاغل على ذكر أمثلة من التاريخ ومن سير ذاتية سبق له أن قرأها. "حين تكون الأمة في حالة حرب، يكون الرئيس تحت ضغوط هائلة. تجد نفسك غائصاً أعمق فأعمق في ذلك الخندق، وهو أمر ليس جيداً بالنسبة إليك". هناك، كان قد قالها.

"إنها نصيحة جيدة" علق بوش.

عاد هاغل إلى مجلس الشيوخ. بعد نحو ساعتين اتصل به هادلي قائلاً:

"حدثني الرئيس عن الحوار هل تريد المجيء لتتحدث معي؟"

رد هاغل: "في الحقيقة لم يكن ذلك موضوع الحديث، يا ستيف، كانت المسألة مسلة أصوات جديدة أو معارضة". "لعلك تعرف ما أتحدث عنه".

"نعم أعرف ما تتحدث عنه" قال هادلي.

عرض هاغل تقديم قوائم بأسماء من ينبغي للرئيس أن يتحدث معهم مضيفاً أن القائمة لا يتعين عليها أن تشتمل على اسمه هو. ومع ذلك فإن هادلي دعاه إلى البيت الأبيض بعد بضعة أيام. وهاغل الدارس الجاد للسياسة الخارجية، أرسل إلى هادلي نسخاً عن عدد غير قليل من المذكرات المطولة التي كان قد زود بها رايس. حين وصل إلى مكتب هادلي وجده مزدحماً بالعاملين في جهاز مجلس الأمن القومي. سأل هادلي: "هل نحن حقاً بحاجة إلى الجميع هنا؟" يبدو أن الأمر كان كذلك. على امتداد ساعة أدلى هاغل بدلوه قائلاً إن العراق كان ورطة أكبر بكثير مما كانوا يقرون وإن على

الإدارة أن تبادر إلى الاضطلاع بالمزيد من المهمات على أصعدة الأمن، التدريب، الإدارة والبنية التحتية.

غادر دون اقتناع وقال في مقابلة له مع **يو اس نيوز آند وورلد ريبورت**: "الأمور لا تتحسن؛ إنها تزداد سوءاً. البيت الأبيض مقطوع تماماً عن الواقع".

ثار غضب هادلي وآخرين في البيت الأبيض، إلا أن هاغل بقي مقتنعاً بأن ذلك كان أحد أوضح الأشياء التي سبق له أن قالها. تقويمه الخاص، بينه وبين نفسه أو وراء الكواليس. كان أسوأ: لم تكن الإدارة متوفرة على أي مفكر استراتيجي. رايس كانت ضعيفة. الجيش كان يجري خَصْيُه والإصرار على تخريبه بأيدي منافقين متملقين يرتدون الزي العسكري

يوم 21 حزيران/يونيو، أدى خليلزاد يمين القسم سفيراً إلى العراق، وعاد جيم جفري إلى واشنطن ليصبح كبير مستشاري رايس بعنوان منسق السياسات العراقية. جاء ليعمل معها كتفاً إلى كتف في معالجة القضية المهيمنة.

في تموز/يوليو 2005 كانت بنود البرنامج بالنسبة إلى كثير من اجتماعات لجنتي النواب والمدراء معنونة بعبارات شبيهة بـ "أمن بنية تحتية" مشتملة على نقاشات حول أمن أنابيب النفط والمحطات الكهربائية. كان أعضاء اللجنتين يتحدثون عن مشكلات المرافق كما لو كانوا أعضاء لجنة أشغال عامة تابعة لإحدى الإدارات المحلية. أحد الأيام لم تحصل بغداد إلا على ست ساعات من الكهرباء.

سأل هادلي: "أليس ذلك هو الوضع الذي كنا فيه قبل 15 شهراً؟"

لم يكن رمسفلد، الجنرال كيسي والجيش يريدون الإنفاق على الحراسة الثابتة لأنابيب النفط ومحطات توليد الطاقة الكهربائية، ودأبوا على مقاومة مثل هذا الإنفاق. أخيراً تم الاتفاق على جعل السفير الجديد زال خليلزاد مسؤولاً عن معالجة مسألة أمن البنى التحتية بما في ذلك حماية آلاف الأميال من الأنابيب الممدودة فوق الأرض. غير أنه لم يكن، بالطبع، متوفراً على الموارد الأمنية – وبالتالي فإن من شأن ذلك أن يكون شبه مستحيل.

◎ ◎ ◎

في 7 تموز/يوليو 2005، نجح أربعة انتحاريين في تمزيق عددٍ من الحافلات والقطارات بلندن، قاتلين 52 شخصاً. كان ذلك التفجير الأعنف والأكثر دموية في لندن منذ الحرب العالمية الثانية.

وفي واشنطن، بعد الحدث بيومين، تلقى رحاب مسعود، معاون السفير السعودي الأمير بندر، مكالمة من الرياض طُلب فيها منه أن يستعرض الملفات ويمعن النظر في مذكرة استخباراتية مؤرخة يوم 14 كانون الأول/ديسمبر 2004، كان قد جرى تقاسمها مع كل من وكالة الاستخبارات الأمريكية والاستخبارات البريطانية.

حين عثر مسعود على مذكرة الاستجواب المؤلفة من أربع صفحات، تعين عليه أن يقرها مرتين، في كانون الأول/ديسمبر كانت السلطات السعودية قد ألقت القبض على أحد السعوديين في مطار القصيم، في الجزء الشمالي - الأوسط من المملكة العربية السعودية. والرجل الذي كان اسمه الأول: عادل، كان قد دخل البلاد إما من إيران أو من الإمارات العربية المتحدة بجواز سفر مزور. أودع السجن، وكشف في أثناء الاستجواب عن أن عملية متعددة الوجوه ستتم في لندن خلال ستة أشهر، عبر استخدام متفجرات من البوسنة، وأفاد بأن العملية ستغطي تحديداً المنطقة المحيطة بـ "إجوود رود". علم مسعود أن أحد انتحاريي لندن الأربعة كان قد فجر عبواته الناسفة على متن قطار في محطة نفق اجوود رود.

"خلال ستة أشهر..". قرأ مسعود ثانية. يفترض أن عادل يعرف أبا مصعب الزرقاوي، زعيم القاعدة في العراق الأردني المولد. في ذلك الوقت زعم أن الحاجة كانت لا تزال تدعو إلى توفير مبلغ 500.000 دولار لتمويل عملية لندن. أربعة أشخاص كانو سينفذونها. لم يكن يعرف أسماءهم، غير أنه أفاد بأعمارهم التقريبية، أطوالهم التقريبية، أوصافهم، وقال إن أحدهم كان يحمل وشماً على أصابعه. كذلك قال إن منسق الفريق كان رجل أعمال ليبياً في لندن، كان مكلفاً بمساعدتهم على التنقل، على العثور على بيوت آمنة، وعلى الاهتداء إلى سيارات مضمونة.

بعد تأمين مبلغ الـ 500.000 دولار كان عادل سيتصل برقم في سورية ليحصل على المزيد من التوجيهات قرأ مسعود أن السعوديين كانوا في شباط/فبراير 2005 قد زودوا المخابرات البريطانية والأمريكية بتقرير ثانٍ تضمن هذه المرة وصفاً أفضل للأفراد المكلفين بتنفيذ الخطة. أفاد عادل بوجود "بريطانيين" و"ألمان" بمعنى

قوقازيين يشبهون الأوروبيين لا العرب، أيضاً، إضافةً إلى الأربعة. وفي تقرير شباط/فبراير كان السعوديون قد قالوا إن عادلاً زعم أن الأربعة كانوا يأتون من بلدان مختلفة.

بعد هجمات 7 تموز/يوليو مباشرة، طلب البريطانيون استجواب عادل بأنفسهم. وافق السعوديون. في 11 تموز/يوليو استفهم مسعود من وكالة الاستخبارات المركزية التي أقرت بأنها كانت قد استلمت المذكرة السعودية ولكنها لم تكن قد عثرت على أي شيء من شأنه أن يدعم ما جاء فيها. كانوا قد حاولوا الاتصال برقم الهاتف في سورية ولكن ذلك لم يفض إلى أي شيء.

بعد ذلك اتصل مسعود بفران تاونسند، نائبة مستشار الرئيس للأمن القومي المتخصصة بأمن الوطن، وأبلغها عن المذكرة.

قال لها مسعود: "لابد من اطلاع الرئيس على الأمر". لم يكن بندر في الولايات المتحدة.

علقت تاونسند: "أعتقد أن عليك أن تزورنا".

ذهب مسعود إلى البيت الأبيض ورافقته تاونسند إلى حيث بوش.

"انظر، سيادة الرئيس، هذه نسخة عن المذكرة" قال مسعود حاملاً المذكرة السعودية المكتوبة باللغة العربية بيده ولكن قارئاً ترجمة إنجليزية.

طلب بوش جميع التفاصيل. تعمقت المخابرات الأمريكية والبريطانية في التحقيق قدر استطاعتهما. سرعان ما بدت المسألة كما لو كانت قصة محتال آخر واتضح أنه كان من الواجب التعامل معها على مستوى أدنى بكثير. غير أن بوش، وهو المستمر في حساسيته المفرطة إزاء القاعدة، كان قد أصبح منسقه الاستخباراتي الذاتي.

بقي بوش مغرماً بألاعيب الشاب. في تموز/يوليو 2005. كان بن اس بيرنتكه، رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين عند بوش، الذي كان بعد قليل سيخلف آلان غرينسبان رئيساً للاحتياط الاتحادي، يلبس جوربين أصفرين في أحد الاجتماعات مع الرئيس. الجوربان كانا فاقعين ولافتين للأنظار في بحر من الجوار الداكنة، المحافظة، وعلق الرئيس عليهما. في غضون بضعة أيام، عقد الرئيس اجتماعاً اقتصادياً آخر، جاء الجميع، بمن فيهم تشيني مرتدين جوارب صفراء. غرق الجميع في بحر من الضحك.

كان بوش ولاسيما روف مولعين بإطلاق الغاز ويتقاسمان حشداً من النكات البذيئة. كان لدى ابن أحد كبار موظفي البيت الأبيض دمية صغيرة يتم التحكم بها عن بعد تصدر صوت إطلاق غاز. جلبها الموظف إلى البيت الأبيض ووضعها تحت كرسي روف صباح اجتماع كبار الموظفين يوم 7 تموز/يوليو. غير أن وصول نبأ التفجيرات الإرهابية في أنفاق لندن وحافلاتها ذلك الصباح، أدى إلى إرجاء اللعبة.

بعد نحو أسبوعين، في 20 تموز/يوليو، تم وضع الدمية تحت كرسي روف وجرى تفليها في أثناء اجتماع كبار موظفي جهاز العاملين في البيت الأبيض. كانت سلسلة من عمليات التشغيل لدمية إطلاق الغاز، ولم يتمكن روف من اكتشاف المزحة إلا بعد عدد من الدقائق. ضحك الجميع. كانوا بأمس الحاجة إلى شيء من الهزل، حسب ما تذكّرَ أحد كبار مستشاري الرئيس.

obeikandl.com

obeikandl.com

37

في هذه الفترة قام قائد الناتو الجنرال جيم جونز بزيارة صديقه القديم الجنرال بيب كيسي، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة. كان مؤكداً افتراضياً أن بيس كان سيُرقى ليحل محل ميرز رئيساً للهيئة.

ما من شخصين، جنرالي مارنيز كانا أكثر تماثلاً وأشد تبايناً في الوقت نفسه. كاند في فيتنام في الفترة الزمنية نفسها تقريباً، تجربة كاوية وتشكيلية بالنسبة إليهما، كليهما. ثم خدما جنباً إلى جنب ملازمين أولين في 1970 في ثكنات قوات المارينز لواقعة جنوب شرق واشنطن.

كان بيس خريج الأكاديمية البحرية عام 1967، الناحل، اللبق، قد أمضى أربع سنوات نائباً لرئيس الأركان المشتركة، شاغلاً المرتبة الثانية في سلم ضباط الجيش لأمريكي. أما جونز، وهو خريج قسم السلك الخارجي السابق في جامعة جورجتاون، طوين القامة، فكان يتكلم الفرنسية بطلاقة وقد عاش في الثكنات قائداً بين عامي 1999و2003 قبل أن ينقله رمسفلد إلى الناتو.

صداقتهما كانت مهنية ممتدة قدر الإمكان في الجيش الأمريكي فيما بين الضباط العاطلين – أكثر من ثلاثة عقود.

عبّر جونز عن الامتعاض إزاء مجرد احتمال رغبة بيس في أن يصبح رئيساً. قال: "ستكون في مواجهة هزيمة كاملة فتكون جزءاً من الهزيمة في العراق" هيبة الولايات المتحدة كانت في أحط مستوى لها بنظر العالم خلال 50 أو حتى 75 سنة. أفاد بأنه كان شديد القلق بشأن العراق وحول أسلوب رمسفلد في إدارة الأمور إلى درجة أنه كان هو نفسه يتساءل عما إذا كان عليه أن يستقيل احتجاجاً أم لا. أخيراً طرح سؤال: "من أين حئت بالمعدة التي استطاعت أن تهضم ثماني سنوات في البنتاغون؟"

رد بيس على صديقه قائلاً بأن أحداً ما كان يجب عليه أن يصبح رئيساً. ومَنْ غيره يفعل ذلك؟

لم يكن لدى جونز أي رد. اكتفى بقول: "الرأي العسكري يبقى متأثراً بالمستوى السياسي". وقعت هيئة الأركان المشتركة في خطأ الاستسلام، غير اللائق لرمسفلد. "لا يجوز للمرء أن يكون ببغاء على كتف الوزير".

بدا قلقه كاملاً. حين قام عضوا مجلس الشيوخ جون وارنر وكارل ليفن، رئيس لجنة القوات المسلحة والديمقراطي البارز، بزيارته في مقر قيادته ببلجيكا حدثهما جونز عن المشكلات كلها. أفاد بأن الضرورة تقضي باعتماد تشريع جديد، نوع من قانون غولد ووتر - نيكولز رقم: 2، إعادة تمكين رؤساء الأسلحة أو إضفاء قدر من العقل على النظام المجنون.

قال جونز: "دأب رمسفيلد منهجياً على خَصْي هيئة الأركان المشتركة".

أقر بيس لاحقاً بأنه أجرى مع جونز عدداً من النقاشات حول مشكلات العملية البينية. أضاف أن التنسيق معطل، "لعدم وجود شخص يلي الرئيس متمتع بصلاحية إصدار الأوامر للمرؤوسين". أنكر صراحة أن جونز كان قد قال له إن العراق كان هزيمة أو إن رمسفلد بقي مصراً على خصي هيئة الأركان المشتركة. ثم تابع بيس بعد الإشارة إلى أنهما صديقان منذ 36 سنة يقول: "إنه صديق صدوق. حضر حفل زفافي. لو كان جيم شاعراً بذلك لما أحجم عن إبلاغي".

اتصلت مع جونز بمقر قيادة الناتو في بلجيكا. قال إنه قد تفوه بجميع تلك التعليقات على مسامع بيس في لقائهما سنة 2005. أضاف جونز: "ذلك هو ما قلته نه".

بعد تثبيت بيس رئيساً، طلب من الأميرال فيرن كلارك، الذي كان قد تقاعد للتو من رئاسة العلميات البحرية، أن يتمهل.

التمس منه: "فسرّ لي معنى تصرفك يا فيرن!"

"لك ما أردت" قال كلارك. "مصر أنت على أن تضحي بأربع سنوات من حياتك في سبيل الوطن وهذه الوظيفة. ما الذي تريده أن يقال عن الوقت الذي أمضيتَه هنا بعد رحيلك؟ أتحداك أن تلخص ما أنجزه رؤساء الأركان السابقون في هذا الموقع. سمِّ واحداً منهم. غريلهم. عُدّ إلى الخلف. اختر واحداً".

كان بيس صامتاً.

تابع كلارك كلامه: "سأسهل عليك الأمر. ابدأ مع كولن باول، زبون مثله. ما الذي أنجزه بوصفه رئيساً لهيئة الأركان المشتركة".

بقي بيس صامتاً.

"سنسجل له أنه قام بترسيخ خطة القوة المتفوقة كثيراً".

بدت السخرية جلية. كان رمسفلد قد نبذ عقيدة باول القائمة على القوة المتفوقة في عملية غزو العراق. "لننتقل، إذن، إلى هيو شلتون" قال كلارك. "لخّص لي جميع مآثر هيو هنا. صف لي ذلك بجملتين".

لم يصدر عن بيس أي رد.

قال كلارك: "سأسجل له هذا: نجح فعلاً في خلق نوع من الفهم لضرورة مضاعفة الاهتمام بالقوات الخاصة". كان شلتون قائد القوات الخاصة قبل أن يصبح رئيساً للأركان.

"وماذا عن شاريكاشفيلي؟" كان جنرال الجيش جون شاريكاشفيلي رئيساً للأركان بين عامي 1993 و1997. انتظر كلارك رداً من بيس. "لا أستطيع أن أتذكر شيئاً، معه هو الآخر". ثم أفاد بأنه لم يكن يريد أن يكون شديد الوقاحة إلى درجة مطالبته بتلخيص مآثر دبك ميرز العظيمة. "لك أن تقدر. لقد عشت معه هنا".

عبر كلارك عن اعتقاده بأنه كان قد أحدث تغييراً مثيراً في البحرية حين كان رئيساً للعمليات على مدى خمسة أعوام. "هاك السؤال الذي يخصك أنت الآن يا بيت: ما الذي تريده أن يقال عنك وعن فترة رئاستك لهيئة الأركان المشتركة؟"

تابع كلارك كلامه: "هذا العمل سيؤدي، أساساً، إلى استهلاكك عبر إغراقك في البريد اليومي وهو يستحق ما هو أفضل من ذلك". كان لابد لتعريف العمل من أن يتجاوز ما يأمره رمسفلد أو يرغب فيه. والصلاحيات القليلة الممنوحة للرئيس بالقانون، بما فيها وجوب إرسال تقويم الرئيس للبرامج إلى الكونغرس مباشرة، جرى تحييدها من قبل رمسفلد. صحيح أن الأمر كان يخص تقريراً واحداً فقط، غير أنه كان رمزياً. كان رمسفلد قد حال دون وصوله إلى الكونغرس خلال أكثر من سنة.

قال كلارك إن على بيس أن يعيد تأكيد مسؤوليته القانونية بوصفه رئيساً. "يجب أن تكون صاحب رأي حين يرفض من هو أعلى منك بدرجة واحدة تحويل تقويمك إلى الكونغرس مدة 13 شهراً. ليس هذا، من حيث الأساس، انهياراً في النظام. إنه نقض لميثاق أو عهد".

قال بيس شكراً، وغادر كلارك.

فيما بعد قال بيس إنه تذكر اللقاء وسؤال كلارك: "ما الذي تريده أن يقال عن الوقت الذي أمضيته هنا بعد رحيلك؟"

قال بيس: "كان ذلك سؤالاً عظيماً جديراً بالطرح". أضاف بدا "صحيحاً تقريباً" أن رمسفلد حجز تقويم الرئيس للبرامج مدة 13 شهراً. وقال "لا أذكر" ما إذا كان كلارك قال إن التأخير كان نقضاً للعهد. في "الحديث الذي جرى بيني وبين فيرن كلارك كان على سجيته، دون أي توتر، وبلا رأي غضب".

مع حلول صيف 2005 بدأ بارتلت يمارس ضغطاً مطرد الازدياد؛ كان الضغط متواصلاً، داخل البيت الأبيض وعلى الرئيس، بشأن الحاجة إلى تغيير استراتيجية الاتصالات حول العراق. لغة الحل لم تعد تفعل فعلها. كانوا متعرضين لفقدان المزيد والمزيد من المصداقية وبدت الطريقة الوحيدة لاسترجاع بعضها متمثلة بإقرار وقوع أخطاء معينة على الطريق. ثمة قوة في الاعتراف بالأخطاء. كان من شأن ذلك أن يقنع الناس برغبة الإدارة واستعدادها لتكييف سياستها وتعديلها عبر المبادرة أولاً إلى الاعتراف بأن أشياء معينة كانت بحاجة إلى تغيير. بدا هذا منسجماً مع هدف ايصال رسالة تشي بأن لدى الرئيس استراتيجية مرنة.

النقطة الأخرى التي أثارها بارتلت مع الرئيس هي الحاجة إلى الظهور بمظهر المستمع إلى آراء المنتقدين. تعين على الرئيس، برأيه، أن يبين أن مقاصدهم نبيلة حيث تكون كذلك. فمن شأن العزم والتصميم أن يبدوا عناداً.

هذا كله تطاير في وجه نزعات بوش الطبيعية. فرسالته الأولى إلى الأمريكيين والعراقيين كان يتعين عليها أن تبقى مؤكِّدة استحالة زحزحته. السنة، على نحو خاص، كانوا يلعبون لعبة مزدوجة. كان من شأن صمود الأمريكيين أن يشجعهم على المشاركة باعتقاد الرئيس. فأي تراجع أمريكي كان سيصب الزيت على نار التمرد السني ويدفعهم إلى التفاؤل بمستقبل ما بعد أمريكي قد يشهد حرباً طائفية حاسمة يمكنهم أن يخرجوا منها ممسكين بزمام التحكم بالبلاد مرة أخرى. لم يعارض بوش صراحة رأي بارتلت القائل بضرورة إدخال بعض التعديل على الرسالة. غير أن فَطْم الرئيس من مزاعم العصمة كان من شأنه أن يستغرق بعض الوقت.

كان لوزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر تأثير قوي، خفي إلى حد كبير، في سياسة إدارة بوش الخارجية.

فنائب الرئيس تشيني أخبرني صيف 2005 قائلاً: "من الخارجيين الذين أفاتحهم وأنا في هذا المنصب، ربما أتحدث مع هنري كيسنجر أكثر من أي شخص آخر. إنه يمر بند، أقله مرة في الشهر، نجالسه سكوتر وأنا".

سبق لتشيني أن كان على علاقة عمل وثيقة مع كيسنجر في إدارة فورد، حين كان تشيني نائباً ثم رئيساً لجهاز العاملين. في البداية كان كيسنجر وزيراً للخارجية ومستشاراً للأمن القومي في الوقت نفسه، في ترتيب ظل يثير حَسَد كل وزير لاحق للخارجية. كان كيسنجر عملاقاً، غير أن تشيني وجد مشورته المتشددة مفيدة بعد 9/11. كان الرجلان يتقاسمان وجهة النظر العالمية القائلة بأن العلاقات الدولية لم تكن سوى مسألة قوة عسكرية واقتصادية. فالنفوذ الدبلوماسي مترتب على التهديد بتلك القوة وصولاً إلى استخدامها. وبأكثر صيغة فجاجة كان استعمال القوة العسكرية يحمل رسالة مفيدة إلى العالم: معاداة الولايات المتحدة خطرة.

كذلك درج الرئيس على لقاء كيسنجر وراء الكواليس مرة كل شهرين، مما جعل الوزير الأسبق المستشار الخارجي الأكثر انتظاماً وتكرراً لبوش حول الشؤون الخارجية. برأي تشيني كان بوش "شديد الانبهار" بكيسنجر. وعن لقاءات بوش - كيسنجر قال رمسفلد: "كنت أساهم في ترتيبها". أما الرئيس، وهو الميال عموماً إلى الاستخفاف بأهمية المستشارين الخارجيين، فقد كان يعدّ مناقشاته مع كيسنجر بالغة الأهمية، حسب شهادة كل من تشيني، رمسفلد وآخرين في البيت الأبيض.

كان كارد وجهاز مكتب الرئيس الشخصي يعرفان أن كيسنجر كان واحداً من الخارجيين من غير أفراد العائلة المتمتعين بحق الزيارة كلما جاء إلى واشنطن للسؤال عما إذا كان الرئيس متوفراً. وفقاً لحسابات كارد نحو نصف اللقاءات كانت مقتصرة على الرئيس وكيسنجر وحدهما. أما النصف الآخر من الاجتماعات فكانت إما بحضوره هو أو مع رايس.

ما من أحد في مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية كان أكثر إثارة للجدل أو مثقلاً بعبء أكبر من كيسنجر ذي الأعوام الاثنين والثمانين.

بقيت فيتنام حجر رحى حول عنقه والموشور الذي ظل يرى العالم من خلاله. فبعد كل من لندون جونسون، ريتشارد نكسون وروبرت ماكنمارا، ربما لم يكن أحد سواه على مثل هذه الدرجة من الارتباط بالحرب. لقد كان مهندس السياسة الخارجية الأمريكية

مع نكسون، وفورد من بعده بين عامي 1969و1975 . وفي كتاباته، محاضراته، خطبه وتعليقاته الخاصة، زعم كيسنجر أن الولايات المتحدة كانت من حيث الجوهر قد كسبت الحرب في 1972، ولم تخسرها إلا جراء التصميم المتضائل لدى الجمهور والكونغرس.

إذا ما أحس كيسنجر بأن لدية شيئ يقوله فإنه بادر عموماً إلى كتابته على شكل زوايا رأي في **الواشنطن بوست**. راودته أفكار كثيرة عن العراق وبوش. أيد الحرب. ومع أنه لم يعترض على خطاب القسم الثاني لبوش الذي حض على نشر الديمقراطية ووضع حد للطغيان، فإن كيسنجر ربما كان قد اعتمد في الأمر موقفاً أكثر تواضع. ففي كتاب له عن رئاسة فورد كتبه عام 1999 بعنوان سنوات التجديد كان قد كتب العبارة التالية: "لا نستطيع التخلي عن الأمن القومي التماساً للفضيلة". وأضاف: "لاند" للولايات المتحدة "من صقل روحها التبشيرية بمفهوم المصلحة القومية والتعويل على رأسها جنباً إلى جنب مع قلبها في تحديد واجبها إزاء العالم".

بأي معنى عملي، لم يكن كيسنجر واثقاً على الإطلاق من أن العراق كان جاهزاً للديمقراطية، وكانت لديه جملة تحفظات حول استخدام قوات قتالية أمريكية في محاولة مكثفة لتدريب أي جيش أجنبي. يضاف إلى ذلك أن القضية كانت متمثله بكيفية التشجيع على تنمية هوية عراقية وطنية – قومية موحدة نظراً لأن أكثرية العراقيين كانت تعد نفسها أولاً وقبل كل شيء منتمية إلى خلفياتها العشائرية أمر المذهبية الدينية – سنة، شيعة أو أكراد. وبارتباط وثيق مع تلك القضية كانت المسألة الحاسمة المتمثلة بالفئة أو الطائفة أو الجماعة التي كان الجيش العراقي سيقاتل دفاعاً عنها وعن مصالحها.

كان كيسنجر معجباً ببوش شخصياً، رغم هَمْسه في آذان بعض الزملاء بأنه لم يكن واثقاً من أن الرئيس كان يعرف بالفعل كيف يدير الحكم. كان يشعر بأن إحدى المشكلات الكبرى تمثلت في افتقار بوش إلى فريق أو نظام صنع قرارات أمن قومي ضامن لإجراء معاينة دقيقة ومتأنية لجملة مطبات القرارات الكبرى.

أحس كيسنجر بوجود نوع من التردد والضياع في كل الأمور ذات العلاقة بالعراق الذي صار يراه عبر موشور الفيتنام أكثر فأكثر. لعل درس فيتنام الطاغي، بطر كيسنجر، هو الصمود وعدم الاستسلام.

حملت زاويته في عدد 12 آب/أغسطس 2005 من **البوست** عنوان "دروس من أجل استراتيجية خروج". كانت الزاوية بطول خطاب قسم بوش الثاني تقريباً. في السطر المتاحي كتب كسينجر يقول: "**الانتصار على حركة التمرد هو استراتيجية الخروج ذات المعنى الوحيدة**" ثم توجَّهَ بموجات نصائحه نحو البيت الأبيض بمن فيه من بوش إلى تشيني وهادلي. قال للجميع: لابد من بقاء الانتصار هو الهدف. حذار السماح بتكرر الخطأ. إياكم أن تتنازلوا عن بوصة واحدة، وإلا فإن وسائل الإعلام، الكونغرس والثقافة الأمريكية القائمة على تجنب المصاعب سوف تدفعكم إلى الخلف. وقال أيضاً إن المحصلة النهائية في العراق أهم من نظيرتها الفيتنامية بما لا يقاس. إن من شأن أي حكومة إسلامية متطرفة أو طالبانية الطراز في العراق أن تكون أنموذجاً قادراً على تحدي الاستقرار الداخلي في البلدان المفتاحية في الشرق الأوسط وخارجه.

قال كيسنجر لرايس إنهم في فيتنام لم يكونوا متوفرين على الوقت، التركيز، الطاقة أو التأييد الداخلي اللازم لاعتماد السياسة الصحيحة. ذلك هو السبب الكامن وراء الانهيار مثل بيت من الورق. حض إدارة بوش على اعتماد السياسة الصحيحة على الجبهتين العراقية والداخلية كليتهما على حد سواء. ينطوي أي انسحاب جزئي للقوات على مخاطره الخاصة. بل ومن شأن مغازلة فكرة سحب أي قوات أن يتمخض عن زَخَم خروج يكون أقل من انتصار.

فهمت رايس أن رسالة كيسنجر كانت داعمة لقناعة راسخة سلفاً لدى بوش.

أوائل أيلول/سبتمبر 2005، قام غيرسون بزيارة كيسنجر في نيويورك. سأله غيرسون: "لماذا أيدت الحرب العراقية؟"

رد عليه كيسنجر: "لأن أفغانستان لم تكن كافية". ثم أضاف أنه في الصراع مع الإسلام المتطرف نرى أنهم يريدون إذلالنا. "ونحن مضطرون لإذلالهم". فالرد الأمريكي على 9/11 كان عليه، من حيث الجوهر، أن يكون أكثر من مناسب – على نطاق أوسع من مجرد غزو أفغانستان وإطاحة الطالبان. كانت الحاجة تدعو إلى شيء آخر. كانت الحرب العراقية ضرورية لإرسال رسالة أكبر، "لتأكيد أننا لن نعيش في هذا العالم الذي يريدون فرضه علينا". وتابع أنه كان قد دافع عن الحرب من البداية. وهذا الموقف أوقعه في مصاعب في مانهاتن ولاسيما في حفلات الكوكتيل، علق وهو يبتسم.

فمنهم غيرسون أن كيسنجر لم يكن ينظر إلى العراق إلا في سياق سياسة القوة الخالصة، بعيداً عن أي مثالية. لم يبدُ ذا علاقة بهدف بوش المتمثل بدعم الديمقراطية. سأل غيرسون: "ما رأيك بخطاب القسم الثاني؟"

رد كيسنجر: "بداية ذُهلت" حريصاً على تغطية نفسه لأن ذلك كان هو ما كان قد قاله لآخرين، وواصل يقوله في جلساته الخاصة. وبعد التأمل بات الآن، حسب زعمه، مؤمناً بأن الخطاب أدى غرضاً وكان تحركاً ذكياً جداً، إذ وضع الحرب على الإرهاب والسياسة الخارجية الأمريكية بجملتها في سياق القيم الأمريكية. كان من شأن ذلك أن يمد أي حملة طويلة بأسباب الدوام.

وعن إيران، قال كيسنجر بأن من الحاسم على نحو مطلق عدم السماح لإيران بامتلاك القدرة النووية والأسلحة النووية. إذا فعلت، أضاف كيسنجر، فإن جميع القوى في المنطقة - تركيا، مصر، المملكة العربية السعودية وغيرها - ستصبح نووية. "من شأن ذلك أن يكون أحد أسوأ الكوابيس التي يمكن للولايات المتحدة أن تتصورها". من شأن ذلك أن يؤدي إلى تقزيم لا يقينيات الحرب الباردة.

عائداً إلى العراق، قال كيسنجر لغيرسون إن على بوش أن يقاوم الضغوط المطالبة بسحب القوات الأمريكية، مكرراً بديهيته القائلة بأن استراتيجية الخروج ذات المعنى الوحيدة تمثلت بالانتصار. قال كيسنجر: "لا يستطيع الرئيس أن يتحدث عن أي تقليص للقوات بوصفه هدفاً مركزياً. قد ترغبون في تقليص القوات؛ ولكن مثل هذا التقليص يجب ألا يكون الهدف. "ليس هذا ما ينبغي تأكيده".

بعد ذلك أهدى غيرسون نسخة من مذكرته المعروفة باسم القضامة المملحة المكتوبة خلال السنة الأولى من إدارة نكسون. ففي هذه المذكرة الموجهة إلى الرئيس نكسون والمؤرخة في 10 أيلول/سبتمبر 1969، كان كيسنجر يخدر قائلاً: "إن سحب القوات الأمريكية سيغدو أشبه بقضامة مملحة بالنسبة إلى الجمهور الأمريكي؛ كما عادت أعداد أكبر من القوات، تصاعدت المطالبة بالمزيد. وكتب كيسنجر يقول إن سياسة "الفتمنة" سياسة إحالة مهمة القتال على الجيش الفيتنامي الجنوبي قد تتمخض عن زيادة الضغط لإنهاء الحرب لأن الجمهور الأمريكي كان متلهفاً لحل سريع. ولن يفيد سحب القوات إلا في تشجيع العدو. "سيغدو الحفاظ على معنويات أولئك الباقين في الميدان، بله أمهاتهم، أكثر صعوبة باطراد".

لم يكن العراق، بالنسبة إلى كيسنجر، إلا الذيل الفيتنامي. أعاد روايته لقصة وضع حد للحرب الفيتنامية على مسامع غيرسون. كان الجمهور، ومعه الكونغرس، وزارة

الـدفاع والجيش، جميعاً، قد باتوا بلا إرادة. وعند أحد المنعطفات، قال، كان قد اقترح على الرئيس نكسون توجيه إنذار كبير وقوي إلى الفيتناميين الشماليين يتضمن تهديداً بعـاقب وخيمة إذا لم يبادروا إلى التفاوض من أجل تحقيق السلام. غير أن ذلك لم يحصل، وقـال مستشار الأمن القومي السابق بأسى: "لم أكن متمتعاً بما يكفي من النفوذ".

الآن في واشنطن، قال جيم جفري لرايس، بوصفه منسق السياسة العراقية، إنه رأى بعض العيوب الخطيرة في "خطة حملة" للجنرال كيسي، تلك الخلاصة السرية لأهداف قوات الولايات المتحدة وغيرها من قوات التحالف في العراق.

باختصار، كانت الوثيقة تقول إن للقوات متعددة الجنسيات في العراق الخاضعة لقـيادة كيسي هدفين اثنين: إلحاق الهزيمة بالإرهابيين، بمعنى قتل الزرقاوي وتحييد حركة التمرد أولاً؛ وإيقاف القوات المسلحة العراقية على قدميها، تدريبها وتجهيزها ثانياً. ثمة كانت أيضاً ست مهمات أخرى عُرفت باسم: "خطوط عمليات(*)".

لم تعد الحرب مجرد استخدام للقوة النارية القاتلة المنبعثة من فوهات المدافع واقنابل المتفجرة. فالمهمة الأكبر والأكثر دواماً تمثلت بجملة المساعي المنسقة الهادفة إلى كسب قلوب، عقول وتأييد الشعب العراقي. ولم يكن ذلك يعني حل المعضلة الأمنية الكبرى وحسب؛ بل وكان يعني تحسين الحياة اليومية للمواطن العراقي العادي المتوسط. كان يعني أن من شأن الأمر أن يتطلب ما هو أكثر بكثير من الأمن الجسدي - المادي، أن من شأن الأحوال السياسية والاقتصادية أن تكون حاسمة على صعيد تحقيق السلام.

كانت المشكلة هي التنفيذ. كان الزرقاوي لا يزال حياً والتمرد غير محيّد. بقي كيسي مصراً على الأمر في التقارير السرية والمقابلات. أفاد جفري: "إنهم يقومون باحتواء التمرد". كان ذلك "احتواء" بالمعنى الذي تم بموجبه احتواء الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة. بقي الاتحاد السوفيتي تهديداً قوياً، ولم يجر تحييده قط إلى أن انهار.

كان التمرد في العراق يشكل تهديداً مشابهاً، مدمراً. قال جفري: "تزايدت الهجمات صعوداً خلال العامين الأخيرين". وعلى الرغم من أن معدل الإصابات الأمريكية بقي على حاله تقريباً، فإن القوات الأمنية العراقية تلقت ضربات أعنف.

(* اشتملت خطوط العمليات على: مساعدة العراقيين في الحكم وتطوير الديمقراطية؛ المساهمة في توفير خدمات أساسية مثل الكهرباء، الماء، التمديدات الصحية والمدارس؛ المساعدة على تقوية الاقتصاد؛ مد يد العون على صعيد تعزيز سيادة القانون والحقوق المدينة؛ زيادة الدعم الدولي؛ والتواصل مع العراقيين مع العمل على رفع شأن "وسائل إعلام عراقية حرة، مستقلة ومسؤولة".

"إنهم يخسرون اثنين مقابل واحد منا. وبالتالي فإن تأثير التمرد هو نفسه وقد يكون أفدح قليلاً. يبدو أن التمرد سوف يصل إلى جميع الأمكنة.

"ما زال التمرد قادراً على تكبيلنا فيما يخص الكهرباء، على قتل المئات، على إشعال الفتنة الطائفية، وعلى تشكيل مصدر دائم للألم الشديد في المؤخرة. صحيح ن المتمردين لن يتمكنوا من الاستيلاء على البلاد، ولكنهم لن يرحلوا، لن يتلاشوا ون يسمحوا بتحييدهم". قال جفري.

أدركتْ رايس أن عليها أن تحاول الخروج أكثر من مسارها والدخول في مسا رمسفلد. كان الأمر يخلق احتكاكاً ملحوظاً مع وزير الدفاع.

سارع رمسفلد إلى الرد زاعماً بانتظام أن غياب التقدم على الجبهة السياسية والاقتصادية، جبهة الميادين العائدة إلى رايس، كان يؤثر سلباً في الأمن. أصر على الملأ على ضرورة تحقيق تقدم على الجبهات الثلاث: السياسية، الاقتصادية والأمنية.

ما لبث الصراع بين رايس ورمسفلد أن تركز على الاقتصاد العراقي. وثيقة "الاستراتيجية القومية لدعم العراق (وثيقة الان اس اس آي NSSI)، السرية" وهي مدة عملاقة مؤلفة من 500 صفحة زاخرة بفيض من الجداول الملونة المرمزة، كانت تقدم صورة موجزة عن كيفية إنفاق المساعدة الأمريكية البالغة 21 ملياراً من الدولارات إلى العراق – إعادة تأهيل المدارس، بناء محطات طاقة كهربائية كبيرة وإعادة إنشاء البى التحتية النفطية. كان الجزء الأكبر من أموال وزارة الخارجية وملاكاته في الميدان موجهاً إلى هذا، مثله مثل جزء كبير من الجهد العسكري الأمريكي.

غير أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام، وكانت الأسباب ذات علاقة بمشكلات أمن البنى التحتية ذاتها التي كان قد سبق لفرانك ملر في جهاز العاملين بمجلس رايس للأمن القومي وآخرين قد شخصوها لها قبل سنوات.

بقي بندر مريضاً ومستنكفاً عن العمل أشهراً، بل ونزيلاً في المستشفى لبعض الوقت. كان الآن موشكاً على ترك الولايات المتحدة بعد 22 عاماً سفيراً لبلده. كان الملك السعودي عازماً على استحداث مجلس للأمن القومي على غرار النسخة الأمريكية، مع تعيين بندر أميناً عاماً للمجلس، في منصب يوازي منصب مستشار الأمن القومي الأمريكي.

قام بندر بزيارة وداعية للرئيس بوش يوم 8 أيلول/سبتمبر 2005. لم يكن ثمة أي نقش للسياسة أو الخطط. قدم بندر إلى الرئيس ميدالية فضية عليها حمامة والأحرف الأولى لاسمه واسم زوجه الأميرة هيفاء. في صورة له مع بوش يظهر بندر منهكاً ونائياً.

38

طار زليكوف عائداً إلى العراق في أيلول/سبتمبر 2005 للقيام بجولة تفتيشية أخرى، لمدة تسعة أيام هذه المرة. كان أقرب إلى الخفة في أسفاره مصطحباً ستة أشخاص – مساعد أركان، عقيد من قيادة الجنرال كيسي، ضابط أمن من وزارة الخارجية وثلاثة جنود. زار أربع مدن وبغداد مرتين. ولدى عودته وضع مذكرة سرية/محصورة التداول (نوديس NODIS) مؤلفة من 23 صفحة رفعها إلى رايس في 6 أيلول/سبتمبر 2005.

بداية سجل أنه كان قد حصل تقدمٌ كبير على الصعيد الأمني خلال السنة الماضية، غير أن حركة التمرد كانت قد نجحت في التكيف. كان المتمردون قد حسّنوا تكتيكاتهم وباتوا يستخدمون متفجرات محلية الصنع (آي إي دي IED's). بدا اختيارهم للأهداف وأسلوب ضَرْبهم لها شديد الإرباك ولاسيما بعد أن أصبحوا متوفرين على أسلحة أشد فتكاً. والواقع المخيب تمثل بكون المتمردين قادرين على التحرك بحرية في أجزاء كثيرة من البلاد وبكون انتشار القوات الأمريكية قليل الكثافة.

كتب زليكوف يقول إن الزخم ما لبث أن تبدد كثيراً بعد انتخاب 30 كانون الثاني/يناير، ولم تكن الحكومة الانتقالية برئاسة الجعفري، عموماً، على مستوى كاف من الأداء. تمثل أحد الاكتشافات الأكثر إثارة بأن وزارة الداخلية العراقية، المولجة بمهمة الإشراف على القوى الأمنية، كانت "تشغّل نظام ظل قائم على احتجازات وإعدامات دون محاكمة".

أما عن ركيزتي عراق ما بعد الحرب – التنمية الاقتصادية والحكم، المركزيتين اللتين كانت الخارجية مسؤولة عنهما – فقد كان التقرير متجهماً: "دون أي تقدم ملحوظ بل تقهقر في بعض الميادين؛ ففي مجالات الكهرباء، النفط والماء، كانت الولايات المتحدة تبذل جهوداً هائلة لمجرد البقاء في المكان نفسه. ثم كان الخط القاتل: "بالغ العراقيون في عقد الآمال العريضة على ما كان يمكن أن نفعله في بلدهم ثم جاء الإخفاق الشامل للمرافق العامة ليغرقهم في بحر بلا قرار من الخيبة والإحباط بشأن الولايات المتحدة".

طرح زليكوف السؤال النهائي الحاسم: "هل نحن على الطريق الصحيحة؟ مع الصعب تحديد معالم النجاح في العراق إذا تم تجاوز التفاهات. ما الذي يعنيه النجاح؟

قام بتسليط الضوء على بعض الأهداف أو معالم الطريق القابلة للرَّوزْ التي كان من شأنها أن تعني نجاحاً:

- **أولاً:** "عصيان مكسور أو محيَّد إلى درجة تكفي لتمكين الحكومة العراقية من احتوائه دون مساعدة أمريكية واسعة النطاق. بعبارة أخرى، ألا تعود الولايات المتحدة بحاجة إلى إرسال قوات برية أمريكية بحجم جيوش بعد عام 2008، مثلاً" بمعنى قوات لا تزيد على 40 إلى 50 ألف جندي أمريكي في العراق مع حلول العام الأخير من رئاسة بوش.
- **ثانياً:** "حكومة عراقية مستقلة، قادرة على الحفاظ على قدرٍ كافٍ من النظام العام بما يضمن عدم تحول العراق إلى قاعدة ذات شأن للإرهاب الإسلامي ضد الولايات المتحدة، وإلى ساحة مفتوحة للتخريب الثوري العنيف والتدخل في إمدادات النفط العالمية الإيرانيَّين.
- **ثالثاً:** "حكومة عراقية متحلية بقدر من القابلية الإيجابية لاعتماد سيرورات ديمقراطية في العالمين العربي والإسلامي".
- **رابعاً:** "حكومة عراقية تخرج من عنق الزجاجة على الصعيدين المالي والاقتصادي إلى درجة تبعث على شيء من الأمل على المستوى الاقتصادي وتمهد الطريق إلى الاكتفاء الذاتي المالي".

اختتم زليكوف مذكرته قائلاً: "ليس الإخفاق إلا وضعاً لا يتم فيه تحقيق ذلك كله مع انتهاء ولاية هذه الإدارة" – أي مع حلول شهر كانون الثاني/يناير 2009. يمكن القول إن "إخفاقاً كارثياً" قد يقع "إذا لم يصمد المركز وتعرضت التجربة العراقية في الإدارة الوطنية الحقيقية للانهيار".

بصرف النظر عن الخصوصيات، أدرك زليكوف أن الجميع في واشنطن كانوا راغبين فعلاً في أن يحصلوا منه على جواب سؤال أساسي واحد: "كيف تسير الأمور؟" كانت الإجابة عن ذلك السؤال بالغة الصعوبة. إنه محام، وقد شعر بأنه كان في منعطف يستطيع فيه أن يعزف أوتار التفاؤل بطلاقة أو يبادر إلى عزف أوتار التشاؤم بالقدر نفسه من اليسر والإقناع.

خلص زليكوف إلى قول: "لست على يقين". كان ذلك هو القاع. أما "في حال حصول الاحتمال الأفضل" في يوم مشرق، كتب يقول "فيمكنني أن أقول للرئيس: "نعتقد أن مساعينا في العراق قد تكون ناجحة"." كان حريصاً على التفنن والتحلي بالمهارة في استخدام كلمة "قد". "بالفعل تبقى فرص النجاح" إذا ما تمت ممارسة ما يكفي من الضغط، واصلة إلى مستوى 70 بالمئة مثلاً. مرة أخرى، ذلك يعني أن هناك احتمال خطر إخفاق بنسبة 30 بالمئة، مع خطر إخفاق كارثي ذي شأن".

لاحظ زليكوف أنه لم يكن قد رأى أحداً مؤمناً بوجود فرص نجاح بنسبة تزيد على 70 بالمئة. وتابع: "حتى في التقويم المتفائل قد يحلو لنا أن نميل إلى الحكم بأن مساعينا ربما هي كافية فقط للنجاح، دون توفر أي احتياطات إضافة إلى ما يؤمل أن يكون كافياً فقط".

لم يكن "كافياً فقط" في الحقيقة، يعني "أي شيء قريب من الكافي" وكان الرئيس قد أعلن أن الإخفاق في العراق لم يكن خياراً. واتفق زليكوف معه في الرأي، مما عنى أن خطر الإخفاق الراهن كان كبيراً على نحو غير مقبول. تعين عليهم أن "يكسبوا وهم راحلون" كما كتب. جمهورها المستهدف كان متمثلاً برايس شديدة الولع بالفريق القومي لكرة القدم، مما جعله يصف الهدف بعبارات كروية. لابد من أن نفوز بهدفين أو ثلاثة إضافية، قال زليكوف.

ثمة كانت أشياء كثيرة بالكاد مواكبة، بادئة بالانطلاق ودائبة على تحقيق تحسينات تركمية. تعين عليهم أن يبذلوا محاولة كبرى للإمساك بزمام الأمر. خارج مكوّنات قليلة لوزارة الدفاع والجيش نادرة كانت الأطراف الجاهزة مئة بالمئة.

"لابد لنا، إذن، من جعل 2006 عاماً انعطافياً، واضعين الحكومة الجديدة التي سكسب الحرب أو تخسرها على مسار إيجابي".

وتحت عنوان "حجم القوات الأمريكية وحماية البنى التحتية الحساسة، كتب يقول إن القوات كانت متباعدة غير أنه لم يوصِ بأي ضخ كثيف للقوات الأمريكية. تعين على الجنرال كيسي أن يسلم بأن إحدى مهماته المركزية هي حماية البنى التحتية. كتائب حماية البنى التحتية العراقية كانت فاشلة، وفقدان الأمن كان يفضي إلى مقتل الكثيرين. "يتعين علينا أن نتعامل مع خطوط الأنابيب الرئيسة وشبكات الكهرباء بالقدر نفسه من الحرص مثل تعاملنا مع طرق إمدادات الجيش الرئيسة وأن نجترح خطة أمنية مناسبة تضم خليطاً من قوات عراقية وأخرى من التحالف".

مرة أخرى أشار إلى أن المستوى الذي بلغه المتمردون على صعيد استخدام المزيد من المتفجرات محلية الصنع الفتاكة التي كانت السبب في مقتل أكثرية الضحايا الأمريكيين، كان مثيراً لقدر استثنائي من القلق والإرباك. كان ثمة دلائل قوية بدءاً بمنتصف عام 2005 أن مكوّنات متفجرات محلية متقدمة كانت تتدفق بغزارة على العراق من إيران. التصاميم لم تكن ثورية، غير أن المتفجرات المحلية الأحدث، إذ شكلت حشواتها وسيرت قذائفها بخطوط مستقيمة، خلافاً لنظيرتها الكبيرة غير الموجهة، ركزت قوتها وباتت قادرة على اختراق الدروع. كانت شديدة الفتك – أكثر فتكاً بأربع مرات من تلك التي كان المتمردون العراقيون ينتجونها بأنفسهم – وقادرة على الفتك بجميع مَنْ في أي عربة همفي مدرعة.

كان البنتاغون متوفراً على خطة بقيمة 3.3 ملياراً من الدولارات لابتكار دفاعات فعالية ضد المتفجرات المحلية. غير أن هذه كانت في الحقيقة مشكلة متعددة الوجو . لم تعد مجرد قدرة الأسلحة على الفتك هي المهمة، بل دلالة أن تلك الأسلحة كانت آتية من إيران. ثمة مؤشرات معينة بينت أن جماعة حزب الله الإرهابية المدعومة من إيران كانت تدرب متمردين على صنع واستخدام متفجرات محلية معدلة تحت إلحاح فيالق الحرس الثوري الإيراني. ذلك النوع من التصرف كان قابلاً لأن يعد حرباً من جانب إيران على الولايات المتحدة. أحس زليكوف بأن من شأن الشروع في الكشف عن جمع الأشياء المعروفة عن هذه الأمور أن تدفع الإدارة إلى إشعال نار لا تقوى على إطفائها.

انتبهت رايس إلى اعتماد زليكوف أنموذجاً أكاديمياً مألوفاً لافتراضات أخطأ، وأدركت أنه كان يتساءل عما إذا كانوا يتركون لأنفسهم هامشاً كافياً للانتصار في ظل رهانات هائلة. غير أن على اعتباراتها أن تكون عملية. على السطح، كان من شأن تخمين زليكوف القائم على توفر فرصة نجاح بمستوى 70 بالمئة أن يفضي إلى استنتاج يقول بأن قوة طاغية كانت مطلوبة لأنهم كانوا مطالبين، وفقاً لتقليد عقيدة باول، بضمان النجاح. أما على مستوى أعمق قليلاً، فلم يكن واضحاً ما إذا كانت أي قوة عسكرية متفوقة كثيراً مؤهلة لإلحاق الهزيمة بأي حركة عصيان. باعتقاد رايس لم تكن أي حركة تمرد قابلة للهزيمة على يد الجيش في المقام الأول. كان لابد من هزيمتها سياسياً. وبالتالي فإن تركيزها كان ينبغي أن ينصب على دور وزارة الخارجية. هل كانت بحاجة إلى تغيير تشكيلة استخدامها لمرؤوسيها؟ كيف كانت تستطيع إيفاد أفضل

العناصر إلى العراق؟ ما الحوافز التي كانت تستطيع تقديمها لإقناع الناس المناسبين بالذهاب؟ كيف كانت تستطيع أن تضع وزارتها على أرضية ذات علاقة أوثق بالحرب؟

كانت راسخة القناعة بأن رمسفلد ظل دائباً على القول بضرورة اختزال أشكال اعتماد العراقيين على المساعدة الأمريكية والإصرار على أن الوقت قد حان لرفع الأيدي الأمريكية عن مؤخرة مقعد الدراجة الهوائية.

كانت رايس تقول: "صحيح ، باعتقادي، أن الناس سيظلون متمسكين بأشكال التبعية طالما بقوا قادرين على ذلك. ولكن صحيح كلياً أيضاً أنك إذا رفعت يدك عن مقعد الدراجة فإن الأخيرة تسقط في الهاوية وهو أمر غير جيداً أيضاً. إنها مسألة توازن. كيف تحكم أنهم باتوا متوفرين على ما يكفي من القدرة؟ أعتقد أن المطلوب هو الحرص على التمسك بأسلوب التدرج".

في 29 أيلول/سبتمبر 2005، ذهبتُ إلى مجلس الشيوخ لتناول طعام الفطور مع السناتور كارل ليفن، الميتشيغاني ذي الأعوام الواحد والسبعين، الشيخ المخضرم منذ 26 سنة والعضو الديمقراطي البارز في لجنة القوات المسلحة. نظر ليفن، وهو الذي كثيراً ما يوصف بأنه "الأشعث" وهو وصف دقيق، من فوق نظارتيه الضئيلتين نظرة مسرحية. وهي بنتاغون رمسفلد كانت تتكرر الإشارة إلى ليفن بوصفه "وكيل النيابة أو المدعي العام" لأنه كان يطاردهم باستمرار. قبل الحرب كان قد اعتقد بأن صدّاماً كان متوفراً على أسلحة الدمار الشامل غير أنه لم يكن يرى أن ذلك كان سبباً وجيهاً وجاهة كافية للغزو.

صوّت ليفن ضد الحرب وكان قد وجه انتقادات عنيفة إلى وكالة الاستخبارات المركزية، اقتناعاً منه بأن الأخيرة لم تكن قد تقاسمت جميع مواقع أسلحة الدمار الشامل مع مفتشي الأمم المتحدة. بمعنى أنها لم تكن جميعاً قد فُتشت قبل إقدام بوش على إصدار أمر الغزو. غير أن هذه المعلومة الواردة في قائمة مواقع أسلحة الدمار الشامل الرئيسة كانت سرية (مصنفة في خانة المواد المكتومة).

"حاولت بعشر طرق مختلفة رفع تلك السرية، قال ليفن "لأننا لو تمكنا، سلفاً، من اكتشاف حقيقة أننا لم نكن قد تقاسمنا مع الأمم المتحدة قبل الهجوم جميع المواقع التي كنا نشك بها، لاستطعنا أن نصيب الماء البارد على قرار الذهاب إلى الحرب".

علقت أن قائمة مواقع أسلحة الدمار الشامل الرئيسة كانت مستندة إلى الكثير من المعلومات الاستخباراتية المتراكمة منذ خمس سنوات، وأن عناصر الاستخبارات العسكرية على الأرض كانوا قليلي الثقة بها.

أفاد ليفن بأن عملية التفتيش بقيت ناقصة، غير مستكملة. باعتقاده كان من شأنها أن تؤجل الحرب، ولكن دون وقفها. شكا من "كل الظلال، المبالغات، وأشكال التهويل" حول أسلحة الدمار الشامل من جانب بوش وتشيني، وأضاف أن ذلك "كشف عن النية الأكثر لهفة والأشد توقاً" لخلق صورة زائفة.

رابتاً بخفة على الطاولة رغبة في التأكيد، قال ليفن: "لم أعتقد قط أن بوش شخص غبي. غير أنني أرى أنه كسول فكرياً وأظن أنه يريد أن يبقى محاطاً بأناس غير مستعدين لأن يتحدوه بل جاهزين لتزويده بالذخيرة التي يحتاجها أو تنقصه لبلوغ هدف أكبر ما".

عبّرتُ عن اعتقادي بأن باول كان شديد المعاناة والاستياء إزاء ما قد حصل في العراق، حيث بقي 130.000 جندي محتجزين هناك، في مواجهة حركة تمرد متصاعدة باطراد.

قال ليفن، وهو يكاد ينفجر من الغضب: "لا أريد أن سمع عن معاناته واستياته. لست متوفراً على المعدة القادرة على هضم معاناته وكربه. إنه شديد الذكاء وغرائزه شديدة الاستقامة والصلاح إلى درجة أنني لا أستطيع أن أقبل بمعاناته. أنا أطلب ما هو أكثر من المعاناة. توقعت ما هو أكثر من المعاناة".

"ما الذي كنت تطلبه؟ اعتذاراً؟" سألته.

"الصدق. كنت أطلب الصدق. لا أريد أن أقرأ بعد عام أو بعد عامين أن هذه هي أسوأ اللحظات في حياته أو شيئاً من هذا القبيل. لقد ظل يواجه مشكلات على امتداد الطريق. كنت قد عقدت الأمل على رجل من نمط جورج مارشال. في الحرب العالمية الثانية كان الجنرال جورج مارشال قد نأى بنفسه عن الرئيس روزفلت، إذ قال له في إحدى المحطات: "سيادة الرئيس، لا تنادني بجورج!"

تابع ليفن: "كان باول متوفراً على إمكانية تغيير المسار هنا. إنه الوحيد الذي كان يملك الطاقة اللازمة لذلك".

سألته: "وكيف كان يستطيع أن يفعل ذلك؟"

رد ليفن: "ليته أبلغ الرئيس بأن هذا هو المسار الخطأ. لا أظن إنه كان واثقاً، بلطلق، من القوة التي كانت بين يديه، وليس هذا إلا تنازلاً عن السلطة. أعتقد أن باول متمتع بنفوذ بالغ الضخامة". قال ليفن إن باول كان لديه عدد من الأشياء التي كان يستطيع أن يفعلها لإبطاء الاندفاع إلى الحرب إن لم يكن، ربما، وقف ذلك الاندفاع. كان يستطيع أن يهدد بالاستقالة أو يصر على تمكين مفتشي الأمم المتحدة من الاستمرار. حين سأل بوش باول في كانون الثاني/يناير 2003 عما إذا كان سيقف معه في الحرب، قال ليفن، كان باول في أوج نفوذه.

"هل تستطيع أن تتصور ما كان يمكن أن يحصل لو كان قد قال: "يتعين علي أن أفكر بالأمر قليلاً"؟ هل تستطيع أن تتصور قدرة ذلك الشخص الواحد على تغيير المسار؟ كان قادراً".

درج بوش على عقد اجتماعات عُرفت باسم اجتماعات الخمسة الكبار مع كبار القادة في الكونغرس - مع زعيمي الأغلبيتين والأقليتين في مجلس الشيوخ والنواب، زائد رئيس البرلمان. كانت الاجتماعات تبدأ بعد الساعة الثامنة صباحاً مباشرة، وكان بوش يتلو مونولوجاً يدوم 45 دقيقة، حول السياسة الخارجية في الغالب. ثمة كانت فرصة 10 إلى 15 دقيقة للأسئلة أو التعليقات، وكانت اللقاءات تنتهي دائماً في الساعة التاسعة تماماً. لم يكن على الإطلاق، يطرأ أي شيء ينطوي على ما يكفي من الأهمية لإطالة أمد الاجتماع.

كان السناتور هاري رايد النيفادي، زعيم الأكثرية الديمقراطية في مجلس الشيوخ، الملاكم السابق البالغ 65 عاماً من العمر وشاغل منصب رئاسة هيئة الألعاب النيفادية، يرى بوش لطيفاً، بل ودوداً، في هذه اللقاءات. غير أن رايد قال لجهاز العاملين لديه إن الانقسام الحزبي كان شديد العمق إلى درجة "أنني لم أعد أطيقه". كان يجد متابعة أكفرية خطب الرئيس المتلفزة المبثوثة على الصعيد القومي أمراً غير محتمل. بدلاً من المتابعة الشخصية، كان يكلف مرؤوسيه بالاستماع إلى الخطب وموافاته بتقرير موجز عما قاله بوش.

لم يكن ثمة أي أرضية مشتركة ذات شأن بين الحزبين فيما يخص العراق. فالتواصل الفعلي كان قد انهار افتراضياً.

◎ ◎ ◎

ظلت لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، وهي إحدى بؤر النفوذ على صعيد الجدل حول السياسات الخارجية ذات يوم، تصرخ منذ نحو سنة كاملة مطالبة رايس بالشهادة حول العراق. تقاعسها كان عنصر إذلال لأعضاء مجلس الشيوخ الذين اعتقد كثيرون منهم أنها كانت فقط تحاول تجنب التلوث بالحرب التي طالت. غير أنها وافقت أخيراً، أن تدلي بشهادتها في الخريف. تشاورت رايس مع زليكوف وآخرين من مرؤوسيها، أملاً في التوصل إلى نوع من تحديد معنى النجاح لشهادتها. عادت إلى مذكرة زليكوف الأيلولية، حيث كان الأخير قد قال إن النجاح كان من شأنه أن يشتمل على كسر التمرد وتحييده، منع العراق من التحول إلى قاعدة ذات شأن للإرهاب، إظهار عملية ديمقراطية ما، وتحقيق انعطافه على الصعيدين المالي والاقتصادي. قررت إدخال نقاط علاّم زليكوف حرفياً تقريباً في شهادتها. غير أن هذه الشهادة المدروسة بقيت مفتقرة إلى خلاصة متماسكة، قابلة للفهم، مؤهلة للسطو على عناوين وسائل الإعلام.

كان زليكوف عاكفاً على قراءة كتاب حرب أفضل الصادر عام 1999 من تأليف لويس سورلي عن استراتيجية "التطهير والثبات" التي كانت بزعم سورلي، قد أفضت إلى بعض النجاح في الحرب الفيتنامية بعد الإقلاع عن استراتيجية "البحث والتدمير".

من وجهة نظر زليكوف لم تكن استراتيجية "التطهير والثبات، كافية؛ كانت بحاجة إلى ركيزة أخرى" أكثر إيجابية، أكثر اتصافاً بالصفة الإعلانية الدعائية. فالثبات كان شديد السلبية. توصل إلى فكرة "التطهير، الثبات و... البناء".

سارعت رايس إلى جعل الفكرة محور شهادتها أمام لجنة مجلس الشيوخ يوم الأربعاء الواقع في 19 تشرين الأول/أكتوبر. كانت تلك المرة الأولى التي اضطر فيها أي مسؤول كبير في الإدارة للمثول أمام اللجنة طوال ما يزيد على سنة.ونصف السنة من أجل الكلام تحديداً عن العراق. قالت رايس لأعضاء مجلس الشيوخ: "ينبغي لإستراتيجيتنا السياسية - العسكرية أن تقوم على أسس التطهير، الثبات والبناء، بمعنى تطهير المناطق من سيطرة المتمردين، الثبات فيها وجعلها آمنة فالمبادرة إلى بناء مؤسسات عراقية راسخة".

إن جزءاً كبيراً من الاستراتيجية كان من مهمات الجيش، فثار غضب رمسفلد فبمقدار ما كان يهم الأخير، لم تكن الاستراتيجية تشي بما كانوا دائبين فعلاً على القيام به أو محاولة القيام به: جعل العراقيين يتكبون المزيد من الأعباء. من الخطأ

القول بأن "الاستراتيجية السياسية - العسكرية" للولايات المتحدة متركزة كلياً على ما كانت الولايات المتحدة ستفعله بدلاً من الذي كان يتوجب على العراقيين أن يفعلوه. كان لابد لهم من رفع أيديهم عن مؤخرة مقعد الدراجة الهوائية، من التخلي عن عجلات التدريب.

برأي رمسفلد، كانت رايس ، تشعر بالحاجة إلى لصاقات المصدّات، لتسليط الضوء على ما كانت الخارجية تقوم به في العراق.

قال لي لاحقاً في إحدى المقابلات: "أنا لم أكن بحاجة إليها. لدينا ما يتعين علينا فعله. ونحن دائبون على فعله. وكان يتعين عليهم أن يقوموا بصياغة شي شبيه بذلك. لهم على صواب. إذا كنت تريد مخاطبة قطاعات متعددة، بما فيها جمهورنا نحن - كونغرسنا، شارعنا -، الشعب العراقي يريد أن يعرف، وهو يسأل: "ما الذي تفعلونه؟ هل لديكم استراتيجية؟ هل لديكم خطة؟" الجواب هو نعم لدينا خطة.

"غير أن المسألة كانت" التطهير شيء، ومشكلتي تمثلت بأنني أردته - إذا كانت تلك إستراتيجيتنا للولايات المتحدة، فقد أصبحت قلقاً بشأنها لأنني أردته في الحقيقة - لماذا عندنا 263.000 عنصر أمن عراقي؟ أردتهم أن يطهروا. وأن يبادروا من ثم إلى الثبات. لم أكن أريد أن يبقى الأمر محصوراً بنا نحن وحدنا. تلك، إذن، كانت هواجسي، لأن ذلك يعني الانقضاض على مقعد الدراجة والتمسك به حرصاً على الحياة الغالية".

يوم الجمعة الواقع في 28 تشرين الأول/أكتوبر 2005 دين سكوتر ليبي (الدراج) في قضية تسريب وكالة الاستخبارات المركزية بتهم الحنث باليمين، عرقلة العدالة وتقديم معلومات زائفة إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، الاف بي آي (FBI). استقال في اليوم نفسه. مسؤولو أمن البيت الأبيض جاؤوا إلى مكتبه، استعادوا جوازات مروره وبلغوه بالمغادرة فوراً. كان ليبي قد تعرض لكسر عظم في قدمه ولم يكن يملك سيارة. حرفياً جرى وضعه على قارعة الطريق، مبتعداً وهو يجرجر جسده على عكازتيه. لاحقاً حين رأى نسخة من الإدانة بعنوان: **الولايات المتحدة الأمريكية في مواجهة لويس "سكوتر" ليبي** انفجر باكياً بدموع غزيرة.

ذات مساء في خريف ذلك العام، كان برنت سكوكروفت جالساً مقابل السناتور جون ماكين على إحدى موائد العشاء. أقر ماكين الذي كان قد شارك بقوة في حملة إعادة بوش للرئاسة في السنة السابقة بأنه كان قد بدأ يستلطف بوش.

"هل يبادر إلى استشارتك في أي شيء؟" سأل سكوكروفت.

رد ماكين: "لا أومن بإبداء رأيي حين أكون معه في غمار حملة انتخابية. هؤلاء الشباب يأتون يختلون بالرئيس لدقيقتين ثم يحاولون إعطاءه دروساً حول كيفية إدارة البلاد. أنا لا أفعل".

"لم يكن ذلك سؤالي. أردت أن أسأل: هل سبق له أن قال لك: "ما رأيك باجري بموضوع...؟""

"لا، لا، لم يفعل" قال ماكين. "ليس فضولياً على الصعيد الفكري في الحقيقة. غير أن أحد الأشياء التي قالها مرة هو التالي: "لا أريد أن أكون مثل أبي. أريد أن أكون مثل رونالد ريغان"".

أدى ذلك إلى إشعال النار في كيان سكوكروفت، الذي كان شاعراً بقدر متزايد من فقدان الأمل. استنتج أن الإدارة كانت دائبة على التورط في مآزق يتعذر تصورها، مكررة أخطاء فيتنام. قليلون كانوا يعرفون أكثر عن فيتنام من سكوكروفت، الذي كان قد عمل بموضوع فيتنام لدى الرئيسن نكسون وفورد. كان يشعر بأن فرص بناء جيش عراقي مؤهل للقتال كانت حتى أقل من تلك التي توفرت قبل ثلاثة عقود حين كانوا يحاولون تدعيم جيش فيتنام الجنوبية الذي كان موجوداً بوصفه قوة ذات شأن، ومستقلة ذاتياً تقريباً في فيتنام. أما في العراق فإن جميع الجيوش كانت مرتبطة، بطريقة أو أخرى، بكل من الشيعة، السنة والأكراد. كانت ثمة كارثة سياسية حقيقية.

ظل سكوكروفت متزايد الإحساس بالخيبة إزاء أشكال أداء أولئك الذين كان يعمل معهم ويشرف عليهم. كان يعد هادلي، الذي كان قد سبق له أن عمل في جهازه في مجلس الأمن القومي أوائل سبعينيات القرن العشرين، صديقاً عزيزاً. غير أن هادلي هذا لم يكن مستعداً للاعتراض على أحد - لا على تشيني ولا على رايس، ولا على رمسفلد بالتأكيد. بل ولم يكن مستعداً حتى للصمود دفاعاً عن آرائه.

حتى والد الرئيس كان قد همس في بعض الآذان معبّراً عن استيائه من رايس. كان الرئيس الأسبق قد صرح: "إن كوندي خائبة، أليست كذلك؟ ليست بمستوى المنصب".

بمقدار ما استطاع سكوكروفت أن يعرف عبر اتصالاته العسكرية، كان رئيس هيئة الأركان المشتركة المنتهية ولايته، الجنرال ميزر، ضعيف الشخصية، مسحوقاً، كلياً

مـللاً. والجنرال بيس كان أسوأ. توفرت للأخير فرصة مراقبة ميرز مع رمسفلد أربع سنوات كاملة، عرف بدقة ما كان ينتظره، وقَبِل المنصب دون تردد.

كان سكوكروفت يشعر بأن تشيني كان هو الأسوأ. جميع الأصدقاء القدامى كانوا يعطرونه بالأسئلة، وهم أناس عرفوه لسنوات: "ما الذي أصاب ديك تشيني؟ يا لها من جرقة! "نحن لا نعرف هذا الديك تشيني".

أما رمسفلد فقد كان يتصرف كما كان يفعل على الدوام، منذ أيام إدارة فورد – "مـهم، معرقل، منحرف، دائم الجهل بطبيعة لعبته". لم يكن رمسفلد، بنظر سكوكروفت، إلا كتلة سلبية من الألف إلى الياء.

لعل أكثر الأمور مأساوية، برأي سكوكروفت، هو أن الإدارة كانت قد اعتقدت بأن صدّاماً كان يدير دولة حديثة، ذات كفاءة، وتوهمت أن مجتمعاً طبيعياً كان سيبرز إلى الوجود في أعقاب الإطاحة به. لم تستطع الإدارة أن ترى أن كل شيء كان سينهار، وكان سيتعين عليها أن تبدأ من نقطة الصفر. لم تكن قد تنبهت إلى ضرورة الأمن، أو إلى إمكانية الاحتفاظ بنسبة ربما تصل إلى 90 بالمئة من الجيش العراقي واستخدامه. العراقيون، بأكثريتهم، غير آمنين. وفي غياب الأمن لا مجال لجعل الناس يراهنون على مجتمعهم، ولا مسوغ لأن يبادروا إلى اتخاذ مواقف إيجابية. بدا لسكوكروفت أن العراقيين كانوا في حالة يأس.

غير أن الإدارة لم تكن مستعدة لإعادة معاينة أو إعادة تقويم سياستها. كثيراً ما كان سكوكروفت يقول: "ليتني أعرف كيف يستطيع المرء أن يكون فعالاً ما لم يكن مدمناً على تحدي افتراضاته الخاصة بين الحين والآخر". ما كان يُحزن سكوكروفت أكثر من أي شيء آخر هو أن يرى صديقه الطيب وقائده السابق بوش الأب، "الرقم 41" كما كان سكوكروفت يلقبه، في حالة "معاناة"،"كرب" و"عذاب" جراء الحرب وما كان قد حدث بعدها. كان الموقف مرعباً. كان الأب لا يزال يريد ابنه أن ينجح. ولكن ما هذه العلاقة الملتبسة المتشابكة؟! برأي سكوكروفت لم يكن جورج دبليو في سنواته الأكثر شباباً قادراً على اتخاذ قرار حول ما إذا كان سيتمرد على أبيه أم أنه كان سيتغلب عليه في لعبته الخاصة. إنه كان قد اختبر اللعبة، وكانت كارثية. كان سكوكروفت واثقاً مئة بالمئة من أن رقم 41 لم يكن، على الإطلاق، سيتصرف بهذه الطريقة – "ولو في مليون سنة".

obeikandl.com

39

كانت أجهزة الاستخبارات الأمريكية عاكفة على إجراء استطلاعات رأي في العراق للوقوف مدى شعبية بعض القيادات والشخصيات العراقية.

بين 11و18 تشرين الثاني /نوفمبر 2005 كان صاحب قصب السبق في العراق هو السيستاني المتمتع بتأييد 61 بالمئة مقابل معارضة 39 بالمئة.

جاء رئيس الوزراء السابق العلاوي بعده مباشرة، إذ أيده 59.7 بالمئة وعارضه 3.40 بالمئة(*).

تلك كانت نسب التأييد التي لم تكن إلا حُلُماً بعيد المنال بالنسبة إلى بوش في الولايات المتحدة. ففي استطلاع أجرته محطة إن بي سي نيوز مع **الوول ستريت جورنال** في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر تبين أن نسبة المؤيدين هي 38 بالمئة والمعارضين 57 بالمئة.

أرادت رايس أن تحقق وجوداً ملموساً ما لوزارة الخارجية في العراق خارج المنطقة الحضراء. أخذت انتقاد زليكوف حول الانتشار غير الكافي للأجهزة المدنية خارج بغداد مأخذ الجد، وأرادت استحداث فرق إعادة بناء مناطقية مؤلفة من خبراء في السياسة والاقتصاد، نشطاء إعانات ومهندسين كانوا سيذهبون إلى المحافظات الـ 18، يقيمون محطات متقدمة، ويمدون يد المساعدة في عمليات إعادة البناء. كان خليلزاد قد أسس فرق إعادة بناء مناطقية (بي آرتيز «PRTs») مشابهة في أفغانستان حين كان سفيراً هناك. اشتبكت رايس مع رمسفلد في مجال آخر لأن الأخير طلب من وزارة الخارجية استئجار متعاقدين من القطاع الخاص لتوفير الأمن للفرق، بكلفة تصل إلى مئات

(*) آخرون في استطلاعات الرأي العراقية كانوا ذوي شعبية سلبية. فمؤيدو الجلبي كانوا 34 بالمئة فقط مقابل 66 بالمئة ضده. وصدام حسين: 22 بالمئة مؤيد، 78 بالمئة ضد. أما المرتبة السلبية الدنيا فكانت من نصيب عزت الدوري، نائب صدام السابق، الذي ما زال طليقاً، إذ أيده 20 بالمئة فقط في حين عارضه 80 بالمئة.

obeikandl.com

ملايين الدولارات. كانت رايس تريد، بالطبع، أن يقوم الجيش بتوفير الأمن المطلوب. طال الأخذ والسرد.

في 11 تشرين الثاني/نوفمبر قامت رايس بزيارتها الثانية إلى العراق، واصلة أوّلاً إلى الموصل، المدينة ذات الأكثرية الكردية الواقعة على مسافة 225 ميلاً شمال - غرب بغداد، لتعلن تدشين فريق إعادة البناء الأول (البي آرتي PRT). ثلاثة فرق أخرى كانت تحس بأنها تساوي وزنها ذهباً تأسست في ثلاث مدن عراقية أخرى. غير أن مشكلات التحويل، الملاك والأمن أدت إلى تأخير بعض الفرق الأخرى، ونحو مئتي شخص في الميدان لم يكونوا قادرين على إحداث تغيير قابل للروز في بلد يصل تعداد سكانه إلى 25 مليوناً من البشر.

◎ ◎ ◎

كانت الهجمات المعادية قد بلغت رقماً أعلى من أي وقت مضى إذ تجاوزت الـ 3.000 في تشرين الأول/أكتوبر، حسب ما جاء في التقارير السرية المصنفة.

في يوم المحاربين القدماء، كان مبرمجاً لبوش أن يلقي خطاباً في مستودعات توبيهانا العائدة للجيش في بنسلفانيا، وهي مؤسسة إصلاح وصيانة عسكرية عملاقة. جرى تمرير مسودة للخطاب على كبار المسؤولين، ولاحظ رمسفلد أن الرئيس كان عازماً على مباركة لغة "التطهير، الثبات والبناء" لدى رايس بوصفها "إستراتيجيتنا".

اتصل رمسفلد مع كارد قبل نحو نصف ساعة من موعد إلقاء الرئيس للخطاب.

أمر رمسفلد: "اشطب العبارة. نعم اشطبها".

رد عليه كارد: "إنها ركيزة الخطاب" يضاف إلى ذلك أن الفكرة كانت محور مجل استراتيجية الإدارة.

أصر رمسفلد قائلاً: "أنصح بحذف العبارة" ملاحظاً أن عملية "التطهير، الثبات والبناء" لم تكن تتم على الأرض. صحيح أن "التطهير" كان جيداً، قال رمسفلد. "نحن نقوم بالتطهير". كان يعني الجيش. "أما الثبات فيقع على عاتق العراقيين. ويتعين على وزارة الخارجية أن تتعاون مع جهة ما للقيام بالبناء".

أكد رمسفلد لي في إحدى المقابلات أنه كان قد طلب حذف العبارة. كان من شأنها تبدو مناسبة آنياً إلا أنها كانت ستعود لتشكل عبئاً على الإدارة. "لسنا وحدنا في

عملية التطهير" ثمة التحالف. وعملية الثبات تخصهم على نحو متزايد ولا علاقة لنا نحن بها. أما فيما يخص عملية البناء فإننا نريد أن نساهم في خلق بيئات تمكّنهم من إعادة بناء وطنهم".

ما لبث رمسفلد أن خسر تلك المعركة المحددة. نطق الرئيس بعبارة: "إستراتيجيتنا قائمة على التطهير، الثبات والبناء".

لم يستطع غيرسون تفهم اعتراضات رمسفلد. فالعبارة كانت اللُّصاقة الفعالة الوحيدة المؤهلة لإلقاء الضوء على إستراتيجية محاربة حركة التمرد.

أما الرسالة الأخرى، الأكبر، في خطاب بوش فكانت تقول إن البيت الأبيض لم يكن ليتردد في الانقضاض على كل من يزعم أن بوش وتشيني كانا قد ضللا البلاد قبل الحرب. كانت النتيجة وضع إشارة المساواة بين النقد والتشهير بالقوات المسلحة.

قال بوش: "مع أن من المشروع تماماً انتقاد قراري أو إدارة الحرب، فإن الإقدام على إعادة كتابة تاريخ كيفية اندلاع تلك الحرب يشي بقدر خطير من اللامسؤولية". مستثيراً عاصفة من التصفيق من جانب الجمهور المؤلف من الجنود وقدماء المحاربين. "رمانات الحرب الكوكبية على الإرهاب عالية جداً، والمصلحة القومية بالغة الأهمية، إلى درجة لا تجيز للساسة قذف الاتهامات الزائفة" أضاف الرئيس على وقع المزيد من التصفيق. "هذه الهجمات التي لا أساس لها ترسل الإشارات الخاطئة إلى القوات كما إلى عدو دائب على التشكيك بإرادة أمريكا".

◎ ◎ ◎

في 16 تشرين الثاني/نوفمبر، ألقى تشيني محاضرة في منظمة محافظة تدعى معهد حدود الحرية، وضاعف تحدي بوش. فتهمة أنهما كانا قد كذبا كانت "إحدى أرذل وأبشع التهم التي سبق للمدينة أن سمعت بها" قال تشيني، ثم أضاف: "لعل ما يثير القدر الأكبر من الأسى هو أن أبناءنا الذين يرتدون الذي العسكري ظلوا يتعرضون لسيل من هذه الأكاذيب اللئيمة والخبيثة يوماً بعد يوم. إن الجنود وعناصر المارينز الأمريكيين موجودون هناك يومياً في ظروف خطرة ودرجات حرارة صحراوية – منخرطين في تنفيذ الإغارات، عمليات تدريب القوات العراقية، متصدين للهجمات، مصادرين الأسلحة ملقين القبض على القتلة – فيما تصر حفنة انتهازيين هنا في

الوطن على الإيحاء بأنهم أُرسلوا إلى ساحات الوغى جراء كذبة. صحيح أننا، الرئيس وأنا، لا نستطيع منع بعض محترفي السياسة من فقدان الذاكرة أو العمود الفقري - غير أننا لن نبقى متفرجين تاركينهم يعيدون كتابة التاريخ".

في ذلك اليوم أصدر البيت الأبيض دحضاً تفصيلياً، نقطة مقابل نقطة، مؤلفاً من 5000 كلمة لافتتاحية مؤلفة من 913 كلمة نشرتها **النيويورك تايمز** كانت شديدة الانتقاد لخطاب بوش عن أسلحة الدمار الشامل فيما قبل الحرب، كما لـ "مزاعم" الإدارة الأحدث القائلة بـ "أن مساءلة أفعاله [أفعال الرئيس وتصرفاته [قبل ثلاث سنوات إن هي إلا خيانة للقوات المنخرطة في القتال اليوم".

في اليوم التالي بادر عضو الكونغرس الديمقراطي جاك مورتا من بنسلفانيا إلى تقديم مشروع قرار يدعو إلى "إعادة نشر" القوات الأمريكية في العراق - و"إعادة النشر" عبارة عسكرية تعني إعادة القوات المنتشرة فيما وراء البحار إلى قواعدها في الوطن - "في أبكر تاريخ عملي ممكن". كان مورتا، وهو مدرب سابق لفرق المارينز وأول محارب سابق في فيتنام انتُخب لعضوية الكونغرس، متوفراً على مصادر ممتازة بين صفوف القوات المسلحة. ما من أحد كان متمتعاً بمصداقية أفضل بوصفه داعماً للجيش من مورتا ابن الأعوام الـ 73. وكان قد صوَّتَ في تشرين الأول/أكتوبر 2002 لصالح قرار يفوض الرئيس باستخدام القوة العسكرية في العراق. وكان مورتا هذا الذي زار العراق أربع مرات يقوم بجولات أسبوعية على المشافي العسكرية لعيادة الجرحى من المقاتلين في العراق.

قال مورتا: "إن الحرب في العراق لا تسير كما يشاع ويعلن. إنها سياسة خاطئة مغلفة بالوهم". أعلن من على منبر المجلس أن الجيش يعاني. ثم أضاف حابساً دموعه: "نَفَّذَ جيشنا جميع الأوامر الصادرة إليه. دقت ساعة إعادته إلى الوطن". أعداد كبيرة من الجنود انهارت معنوياتهم وهم ضعيفو التجهيز. بعد مرور عامين كاملين على الحرب، كان وجودهم في العراق بالذات يعيق تقدم العراق نحو الاستقرار وحكم الذات.

كان هذا صاعقاً وأدرك جمهوريو المجلس أن من الضروري التصدي بقوة للموقف. في اليوم التالي عقد المجلس أحد أكثر مناقشاته هياجاً وصخباً. أكد رئيس المجلس دنيس هاسترت أن مورتا وديمقراطيين آخرين كانوا قد "تبنوا سياسة اضرب واهرب. هم ميالون إلى تفضيل استسلام الولايات المتحدة للإرهابيين الذين لن يترددوا في إلحاق الأذى بالأمريكيين الأبرياء".

أما رئيس لجنة القوات المسلحة البرلمانية الجمهوري دنكان هنتر من كاليفورنيا فتقدم بمشروع قرار يلوي بخبث عنق اقتراح مورتا القاضي بالانسحاب "في أبكر تاريخ عملي". فمشروع قرار دنكان جاء داعياً إلى انسحاب فوري للقوات. مورتا نفسه لم يستطع ولم يُقدِم على التصويت لصالحه. هُزم مشروع القرار بأكثرية 403 ضد و3 مع.

لاحقاً في اليوم نفسه أصدر سكرتير الرئيس الصحفي سكوت ماكليلان بياناً. جاء في البيان "إن عضو الكونغرس مورتا محارب قديم وسياسي محترم ذو سجل زاخر بمواقف دعم أمريكا قوية. وبالتالي فإن من المحيّر أن يكون موافقاً على مواقف مايكل مور(*)، والجناح الليبرالي المتطرف في الحزب الديمقراطي، السياسية. وعشية انتخابات ديمقراطية تاريخية في العراق ليست الوقت المناسب للاستسلام للإرهابيين. بعد الاطلاع على تصريحه وقعنا في حيرة - لا يبين لنا في أي مكان من الخطاب كيف يمكّن للانسحاب من العراق أن يجعل أمريكا أكثر أمناً". أما انتخابات 15 كانون الأول/ديسمبر الوشيكة في العراق التي أشار إليها ماكليلان فكانت لانتخاب برلمان دائم، مؤهل لاختيار رئيس للوزراء لمدة أربع سنوات.

كانت صرخة مورتا صادرة عن أعماق روح الجيش الأمريكي وضميره. وضباط الجيش المطلعون كانوا متأكدين من أنه لم يكن ناطقاً باسمه وحده.

حاول كارد أن يعقد جلسة خاصة، صريحة مع لورا بوش مرة كل ستة أسابيع لسماع هواجسها. خصص مدة ساعة ونصف الساعة لكل لقاء. أحياناً كان لا يدوم سوى 30 دقيقة، وأخرى كان يستغرق مدة الساعة والنصف كلها بل وحتى ساعتين بين وقت وآخر.

بدت السيدة الأولى حزينة بشأن الحرب، وكان كارد يعلم أنها لم تكن مطلعة على المعلومات الاستخباراتية السرية والمصنفة عن العراق. ومع ذلك فإنها ظلت تلح عليه طلب للمعلومات.

قال كارد: "لا أستطيع الكلام عن الأمر".

"هو الآخر لا يطلعني".

(*) قام مور بإخراج فلم وثائقي معاد لبوش أثار جدلاً واسعاً بعنوان فهرنهايت 9/11.

كانت السيدة الأولى قلقة من أن يكون زوجها متعرضاً لأذى رمسفلد، وبدت نظرتها عاكسة لهواجس رايس حول أسلوب ونزوع رمسفلد الطاغيين للهيمنة. كان كرد يعرف أن السيدة الأولى ورايس كانتا تمشيان معاً مشاوير طويلة أيام العطل الأسبوعية بكامب ديفد.

قال كارد: "اتفق معك". على أحد المستويات كان يحاول أن يثقّف ويشرح، ولكنه كان أيضاً يسعى لكسب التأييد، ماجعله يوجز مشكلاته مع رمسفلد ويشي باعتقاده بأن وقت التغيير قد حان.

سألته: "حسناً، وهل يعرف الرئيس كل ذلك؟". هل كان صريحاً مع زوجها؟

قال كارد إنه كان. "ذلك هو ما يجعلني أجادل". غير أنه أفاد بأن نصائحه حول وضع رمسفلد كانت، حتى الآن، قد دُرست وقوبلت بالرفض.

قالت السيدة الأولى: "إنه سعيد بهذا. أما أنا فلست كذلك". وفي مناسبة أخرى قالت: "ليتني أعرف سبب عدم استيائه من هذا".

خلال الجزء الأكبر من العام كان الرئيس عاكفاً على اجتراح الأسلوب المحتمل لشرح استراتيجية الانتصار في العراق. ففي نبراسكا كان قد قال يوم 4 شباط/فبراير 2005 : "إستراتيجيتنا واضحة. سنساعد العراقيين لتمكينهم من الدفاع عن أنفسهم. سنقوم برفع وتيرة التدريب... سنساعدهم على بناء قوة أمنية عالية الجودة. وما إن يتم إنجاز تلك المهمة ويصبح العراق ديمقراطياً وحراً وقادراً على الدفاع عن نفسه، حتى تعود قواتنا إلى الوطن مكللة بأكاليل الشرف التي تستحقها".

تمثلت المشكلة بعدم كون تدريب العراقيين وبناء الدفعات العراقية إستراتيجية انتصار عسكري كلاسيكي - لم تكن سوى "حركيات" تفجير واشتباكات مع قوى عسكرية أخرى. أدرك الجنرالان أبي زيد وكيسي أن هدف "تحييد" المتمردين كما عزد بخطوطه العريضة في "خطة الحملة" السرية المصنفة لم يكن قد تحقق. بنوع من المعنى العملي، كان الجيش قد تبنى إستراتيجية انتقالية قائمة على نقل المشكلة إلى العراقيين، مقابل أي إستراتيجية انتصار. فعملية "تحييد" المتمردين أو حتى هزيمتهم كانت بالغة الصعوبة. باتت الخطة قائمة على تدريب قوات الأمن العراقية وصولاً إلى تمكينها من أداء المهمة.

كان المطلوب جعل الإستراتيجية الانتقالية تبدو كما لو كانت تقدماً. ففي خطاب له موجّه إلى الأمة من فورت براغ النورث كارولاينية، يوم 28 حزيران/يونيو 2005، قال الرئيس: "يمكن تلخيص إستراتيجيتنا على النحو التالي: مع شروع العراقيين في الوقوف على أقدامهم سنباشر الخلود إلى الراحة".

مَثُل أبي زيد أمام الكونغرس ثم ظهر على شاشات التلفزيون يوم الأحد الواقع في 2 تشرين الأول/أكتوبر 2005. قال الجنرال لمراسل الان بي سي تيم روست: "لدينا قوة أمن عراقية قوامها نحو 200.000 عنصر في الميدان، قطعنا شوطاً كبيراً. أنا متفائل".

بالفعل كان تعداد قوات الأمن العراقية متصاعداً باطراد فيما بقي عدد القوات الأمريكية ثابتاً. غير أن التقارير السرية المصنفة كانت تبين أن الهجمات التي شنها العدو خلال الأشهر الثمانية الماضية كانت قد تزايدت بقدر واضح من الاطراد حتى بلغت 2.500 هجوماً في شهر أيلول/سبتمبر 2005.

بقي أبي زيد على صلة بباقة من رفاق السلاح القدامى – كثيرون من وست بوينت ومتقاعدون بأكثريتهم، بمن فيهم جنرال الجيش وين داونغ وجيم كيمسي، أحد مؤسسي أمريكا على الخط. كانوا متوجسين من تحول العراق شيئاً فشيئاً إلى فيتنام – كان من شأن الأمر أن يفضي إما إلى التعجل في الانسحاب أو إلى حرب متعذرة الكسب.

درج بعض هؤلاء على زيارة أبي زيد في مقر قيادته بالدوحة ومن ثم في العراق. بقي أبي زيد مصراً على أن الحرب باتت تخص العراقيين. لابد لهم من كسب الحرب الآن. أما الجيش الأمريكي فكان قد فعل كل ما استطاع فعله. وجادل أن من الحاسم أن يتم الشروع في خفض حضور القوات الأمريكية. إن صورة احتلال زاخزة بقوات أمريكية تقوم بأعمال الدورية، تركل الأبواب وتحطمها، تنظر إلى العراقيّات، هي التي كانت لا تزال تثير حفيظة الرجال العراقيين.

"علينا أن نخرج من هذا المستنقع اللعين". كان أبي زيد يقول.

أما أصدقاؤه القدامى فكانوا مرضى وسواس احتمال مواجهة فيتنام آخر أو أي شيء شبيه بما يفضي إلى وضع حد لأي جيش متطوع. "ما معنى إستراتيجية الانتصار؟" ظلوا يسألونه بإلحاح.

"ليست تلك من وظائفي" قال أبي زيد بإصرار.

لكن رفاق السلاح ألحوا: "بلى إنها من وظائفك". كان أبي زيد هو المحنك أكثر. كان قادراً على متابعة الكلام ساعة كاملة ودون أن يبعث على أي ملل، بطريقة أفضل من أي شخص آخر.

"لا" قال أبي زيد "صياغة الإستراتيجيات تخص آخرين".

"من؟"

"الرئيس وكوندي رايس لأن رمسفلد لم يعد متمتعاً بأي مصداقية". قال أبي زيد.

سمع هادلي شكاوى مشابهة من عدم وجود أي استراتيجية. أراد أن يطلق حملة علاقات عامة. كلف مديرة قسم العراق في مجلس الأمن القومي الذي يتولى شؤونه، ميغان أوسليفان، بتمشيط الوثائق السرية المصنفة التي كانت، برأيه تلخص إستراتيجية الإدارة، والنظر فيما يمكن إعلانه على الملأ.

في حزيران/يونيو 2005، كان هادلي قد جنّد بيتر فيفر، أستاذ مادة العلوم السياسة بجامعة ديوك وضابط البحرية الاحتياط البالغ الـ43 سنة من العمر الذي كان قد عمل في مجلس كلنتون للأمن القومي وفي جهاز العاملين لدى المجلس. كان فيفر قد درس تأثير الحرب على الرأي العام واستخلص أن الجمهور كان أكثر تحملاً لخسائر المعارك والاشتباكات مقارنة بالساسة وكبار ضباط الجيش. أحس بأن كلنتون كاد يصل إلى مستوى مساءلة صلاحيته، بوصفه قائداً عاماً، لمطالبة أحدهم بأن يموت. وكان هذا الموقف قد تسرب نزولاً إلى درجة أن القادة السياسيين والعسكريين في فترة رئاسته باتوا شبه عاجزين عن أن يطيقوا أي إصابات.

كانت دراسة فيفر تشي بأن من شأن الجمهور أن يتحمل الإصابات إذا شعر بأن خطة الحرب معقولة، هادفة إلى الانتصار. عملت أوسليفان ومعها فيفر على وضع وثيقة إستراتيجية تتضمن وصفاً لطريق معقولة مفضية إلى النصر. كانت الوثيقة التي اجترحاها توحي، برأي فيفر، بتقدم ملتبس، ولم تتضمن أي إعلان غبي لضرورة الثبات على الخطة.

سارع هادلي إلى إرسال المسودة إلى الرؤساء. كان لرمسفلد فيض من التعليقات المسيجة بحذر. كانت الوثيقة النهائية تقول: "نتوقع، ولكننا لا نستطيع أن نضمن حصول تغيير في وضع قواتنا خلال السنة". بعبارة أخرى، لم يكن ثمة أي برنامج زمني لسحب القوات.

حملت الوثيقة عنوان: "إستراتيجية قومية للانتصار في العراق". كانت خارجة مباشرة من صندوق عجائب كيسنجر - الانتصار هو إستراتيجية الخروج ذات المعنى الوحيدة.

وافق بوش واعتُمدت خطة إصدار "إستراتيجية انتصار" مؤلفة من 35 صفحة في أيول/سبتمبر. غير أن إعصار كاترينا في 29 آب/أغسطس أدى إلى تدمير نيواورلينز وساحل الغولف، وأوقع إدارة بوش في حيص بيص. تعين على المبادرة أن تتأجل.

علاقة كارد برمسفلد كانت صعبة وشائكة على الدوام. في الأكثرية الساحقة من المرات، كان رمسفلد يوافق على كلام كارد القائل بأن الرئيس أراد تنفيذ أشياء معينة، ثم يمنح رئيس الأركان فرصة الشك لدى قيامه بتمرير الأمر. غير أن رمسفلد أبدى معارضة في عدد قليل من المرات.

في الأيام التي أعقبت إعصار كاترينا، كان بوش قد قرر أن الحاجة باتت تدعو إلى المزيد من الحرس القومي/الوطني، وطلب من كارد إيصال الرسالة إلى رمسفلد.

رد رمسفلد على كارد قائلاً: "أنت تعلم أنني لا أرفع تقاريري إليك".

"أنا أعرف ذلك بالتأكيد. أنت تخاطب الرئيس. ولكن صدقني أنه يريدك أن تنفذ هذا الأمر".

أكد رمسفلد موقفه لرئيس العاملين قائلاً: "لن أفعل ذلك ما لم يطلبه مني الرئيس". ثمة مبالغة في تحميل الحرس قدراً مفرطاً من الأعباء والواجبات.

احتج كارد قائلاً إنه كان للتو قد تحدث مع الرئيس الذي كان قد اتخذ قراراً لا رجعة عنه.

"إذن عليه هو أن يبلغني" قال رمسفلد.

لاحقاً قال الرئيس لكارد: "يا هذا، لقد اتصل بي رمسفلد، ظننت أنك كنت مكلفاً بمعالجة الأمر".

"وقد فعلت" قال كارد بجفاف "ولكنه أراد سماع الأمر منك أنت، كما أقدر".

بعد عيد الشكر، بذل كارد محاولة مركزة أخرى لدفع الرئيس إلى استبدال رمسفلد. لم يكن يريد أن يبقى الرئيس معصوب العينين. لم يكن انقضاض رمسفلد على إستراتيجية "التطهير، الثبات والبناء" إلا مثالاً واحداً. كثيرون من القادة الجمهوريين

والديمقراطيين كانوا يهمسون في أذن كارد معبرين عن عدم قدرتهم بالمطلق على التعامل معه. كان أكثر غطرسة وإحجاماً عن التجاوب من أي وقت مضى. كذلك كان كارد يسمع من أعضاء مؤسسة السياسة الخارجية القديمة ذوي العلاقة مع والد الرئيس – ذوي "اللحى الرمادية" كما كان يسميهم – ممن كانوا يتذمرون أكثر فأكثر. كان الهدف هو رمسفلد.

"ومن سيضطلع بالمهمة؟" سأل الرئيس كارد.

مرة أخرى أتى كارد على ذكر جيم بيكر. "كيف نعيد روجر كلمنس إلى حلبة اللعب؟" سأل كارد مشبّهاً بيكر بأحد أعظم هدّافي البيزبول عبر الأزمان كلها. كان كلمنس هذا قد تقاعد من فريق نيويورك يانكيز سنة 2003، ثم ما لبث أن عاد ليماريس العب سنة أخرى في فريق مسقط رأسه هيوستون آستروس. "ما زال قادراً على تسديد الأهداف" قال كارد عن بيكر.

ذكره بوش بأنهم كانوا في حرب. كان رمسفلد عاكفاً على تحويل الجيش، لم يسبق له أن كان غاضباً، وكان بحاجة إلى الحصول على إقرار موازنة البنتاغون. كان من شأن استبداله أن يؤثر سلباً في الانتخابات العراقية الوشيكة في 15 كانون الأول/ديسمبر. "مثير للاهتمام، قال الرئيس مهما يكن من أمر، نعم مثير للاهتمام".

استطاع كارد أن يرى أن المسألة بدأت تستقر في عقل بوش. كان من شأنها أن تخرج إلى العلن. غير أن الرئيس لم يكن مستعداً ولو لتفويض كارد المجسات أو الدخول في أي نقاش مع بيكر.

أخيراً تم في 30 تشرين الثاني/نوفمبر2005، إطلاق وثيقة "الإستراتيجية القومية للانتصار في العراق" ذات الصفحات الـ 35. كانت الخلاصة التنفيذية تقول: "ما من حرب سبق لها أن رُبحت بموجب برنامج زمني ولن يحصل ذلك في المستقبل". من شأن القوات الأمريكية أن تُسحب "مع تقدم العملية السياسية ونمو قوات الأمن العراقية واكتسابها الخبرة. في حين أن وجودنا العسكري قد يغدو أقل ظهوراً، فإن هذا الوجود سيبقى فتاكاً وحاسماً، قادراً على مجابهة العدو في أي مكان قد يلوذ به وينظمه. رسالتنا في العراق هي كسب الحرب. وقواتنا ستعود إلى الوطن بعد استكمال أداء الرسالة".

تمثل جزء من الخطة بمبادرة بوش إلى إلقاء أربعة خطب عن العراق بدءاً بخطب في ذلك اليوم بالأكاديمية البحرية في آنّابوليس الميريلاندية. عشرات اللافتات الكبرة

المزينة بعبارة "خطة للنصر" كانت معلقة في الخلفية. استخدم بوش كلمة "انتصار، 15 مرة، أكد أنه لن يساوم، وحافظ على نبرته المتفائلة. اعترف بعدد قليل من الأخطاء، قائلاً إن تدريب قوات الأمن العراقية، مثلاً، لم يتم دائماً على نحو ميسّر وسلس، غير أنه أضاف أن عِبَراً جرى استخلاصُها. "غَيَّرْنا الطريقة المعتمدة في تدريب الشرطة العراقية. مجندو الشرطة باتوا الآن يمضون فترات أطول من وقتهم خارج غرفة الصف مع التدريب العملي المكثف على عمليات محاربة الإرهاب ومهارات البقاء في عالم الواقع".

لم تكن خطة بوش الحربية قد تغيرت، إلا أن التغطية الإعلامية أوحت بأنه بات أكثر صراحة وشمولاً. تحدثت **الواشنطن بوست** في رسالة لها من بغداد ذلك اليوم أن الإرهاب لم يكن تجريداً خالصاً فقط. "في شوارع بغداد، تتناقض مثل هذه الخطب اليلاغية المتفائلة تناقضاً بالغ الحدة مع هدير التفجيرات الانتحارية، مع عويل أبواق سيارات الإسعاف، مع زئير سيارات الشرطة المندفعة بسرعة مجنونة ناقلة رجالاً مقنَّعين ومدججين بالأسلحة الرشاشة، مع التقارير اليومية المتجهمة عن الاغتيالات، عمليات القتل وأخذ الرهائن.

"في اليوم الذي تحدَّثَ فيه بوش بالذات قُتل تسعة مزارعين حين فتح مسلحون النار على إحدى الحافلات بالقرب من بعقوبة، قناصون أطلقوا النار على مكتب أحد أعضاء المجلس الوطني في العاصمة، وثلاثة ضباط من الجيش العراقي جُرحوا حين انفجر لغم بالقرب من دوريتهم. في الفلوجة، مشى 20.000 شخص في جنازة رجل دين سني قُتل رمياً بالرصاص وهو يغادر الصلاة".

العنف على الأرض لم يكن قد تغير. غير أن رسالة من بغداد سطّرها اثنان من مراسلي **النيويورك تايمز** المحترمين، جون اف بيرنز ودكسر فلكنز، قطعت أبعد الأشواط، إذ لاحظت تغييراً في الرئيس. معنونَيْن الرسالة بعبارة: "لمرة واحدة، يرى الرئيس وجنرالاته الحرب ذاتها". عَدّا خطاب بوش "محطة انعطافية" لأنه اعترف بالصعوبات الهائلة الكامنة في تدريب العراقيين وإيصال كتائب جيش وشرطة عراقية إلى مستوى يمكنها من الصمود وحدها في وجه التمرد.

في 7 كانون الأول/ديسمبر طار الرئيس إلى نيويورك لمخاطبة مجلس العلاقات الخارجية في خطابه الثاني بين الخطب الأربع المخططة حول العراق.

قال: "اليوم نحيي ذكرى يوم مشؤوم في تاريخ أمريكا، وشبه بيرل هاربر بـ 9/11. كان ذلك لا يزال موضوعه الرئيس.

لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم في واشنطن، قام بوش بدعوة القادة الجمهوريين في المجلس، بمن فيهم الـ 15 نائباً فعالاً كانوا النواة التنظيمية للحزب الجمهوري في المجلس، إلى البيت الأبيض. هؤلاء كانوا الجمهوريين الطموحين الذين كان بوش راغباً في إبقائهم قريبين. كل من تشيني، روف، كارد وبارتلت حضروا الاجتماع في الغرفة البيضوية في جناح البيت الأبيض السكني.

أقر الرئيس بأنه قد بقي بعيداً عن حلبته منذ إعصار كاترينا. ثمة كان نوع من الركود في الزخم السياسي دون شك، حسب تعبيره. غير أنه أضاف أن الإدارة كانت الآن في العراق تقوم بأشياء على نحو مختلف عما سبق لها أن كانت قد فعلت قبل عامين. لم يكن سيسحب أي قوات إلى أن تصبح شروط النصر مضمونة.

قال بوش: "لسنا مغادرين ولو لم يبق أحد داعماً لي سوى لورا وبارني".

قال النائب الجمهوري من ميزوري روي بلنت الذي كان زعيم أكثرية انتقالياً إن الناس، حين سمعوا ديمقراطيين من أمثال مورتا يقترحون الخروج من العراق، أدركوا أن البديل المقبول الوحيد كان ما يفعله بوش. وافق الجميع على أن فرض القضية بالتصويت في المجلس كان انتصاراً تكتيكياً عظيماً.

قال بوش: "أعرف أنني ألقي خطباً طويلة ومملة، ولكن مستشاري يؤكدون أن ذلك ضروري".

عدد غير قليل من أعضاء الكونغرس شجعوا الرئيس وعبروا عن قناعتهم بأن عليه أن يلقي خطباً طويلة، أحادية الموضوعات لأنها كانت تجبر وسائل الإعلام على تغطيتها. لا أحد يبالي إذا انزعجت وسائل الإعلام، أليس كذلك؟ إنها مسألة سعي للتحكم بتغطيتها.

40

في اليوم التالي، يوم 8 كانون الأول/ديسمبر 2005، عقد بوش وتشيني مؤتمراً فيديوياً مع السفير خليلزاد والجنرال كيسي.

كم من الوقت كان سيستغرق تشكيل الحكومة الدائمة الجديدة بعد انتخاب المجلس الوطني الذي كان سيقوم باختيار رئيس الوزراء؟ سأل بوش.

قال خليلزاد إن الأمر تطلب 90 يوم في المرة السابقة، أما هذه المرة فكان يأمل إنجازه في نصف تلك المدة، خلال ستة أسابيع بعد انتخابات 15 كانون الأول/ديسمبر المقبلة.

ألقى بوش خطابه العراقي الثالث في فيلادلفيا بتاريخ 12 كانون الأول/ديسمبر. وقد أجاب هذه المرة على أسئلة الجمهور، أسئلة أفراد عاديين من الجمهور لم يتم إضهارهم على الشاشة.

جاء السؤال الأول ذا دلالة: "أريد أن أعرف العدد الإجمالي التقريبي من العراقيين الذين قُتلوا منذ بداية الحرب العراقية. وحين أقول عراقيين أعني المدنيين، العسكريين، الشرطة، المتمردين والمترجمين".

كرر الرئيس: "كم عدد المواطنين العراقيين الذين ماتوا في هذه الحرب؟ أميل إلى أن أقول إن 30.000 أكثر أو أقل، ماتوا نتيجة الاجتياح الأول وأعمال العنف المتواصلة ضد العراقيين. ونحن فقدنا نحو 2.140 فرداً من قواتنا في العراق". بدت الأرقام ذات دلالة، كما واقع امتلاك بوش للعدد شبه الدقيق للقتلى الأمريكيين، لعدد 2144 على رأس لسانه.

مجلس تخطيط الدفاع، فرق كبار المستشارين الخارجيين لرمسفلد الذي كان يضم كلاً من كيسنجر، نيوت غنغرتيش وكن آدلمان اجتمع في البنتاغون ليومين اثنين من أجل الاطلاع على تقارير موجزة في 8و9 كانون الأول/ديسمبر. خلال اليوم الأول، قدم أحد كبار نواب رمسفلد، ريان هنري، تقريراً عن الصورة الدفاعية الرباعية، الإستراتيجية التفصيلية للجيش الأمريكي في الأعوام الـ 20 المقبلة. كان رمسفلد يعتقد بأن هذه

كانت أحد أكبر إنجازاته وأعظمها - خطه للمستقبل. في منتصف عرض نقاط القوة بالاستناد إلى فيض من السلايدات والجداول توقف هنري عن متابعة العرض ليقول: "الخبر السعيد أن برنامجاً دفاعياً واحداً لم يتعين وقفه".

قاطعه آدلمان قائلاً: "حسناً، ولماذا يكون ذلك خبراً سعيداً؟". المقاطعة لم تكن مألوفة. "ثمة صورة إستراتيجية لأربع سنوات منذ اندلاع الحرب على الإرهاب، منذ وقوع أحداث 9/11، منذ أن بات العالم مختلفاً، ولم يكن ثمة أي برنامج يمكنكم استئصاله وإلغاؤه؟"

قال هنري إن جميع من في المبنى - مدنيين وعسكريين - كانوا قد قرروا عدم اختزال أي شيء.

علق آدلمان ثانية: "آسف أنا للمقاطعة، غير أنني أجد الأمر غير قابل للتصديق".

في اليوم الثاني التقى المجلس رمسفلد الذي كان فخوراً بالصورة المعمقة المتضمنة جملة من الخطط لزيادة قوات العمليات الخاصة بنحو 15 بالمئة وإضافة برامج متطورة لمكافحة الإرهاب والتعامل مع أسلحة الدمار الشامل.

تدخل متعاقد دفاعي ومؤيد كان رئيساً للمجلس يدعى كريس وليمز قائلاً: "أعتقد أن لِكَنْ وجهة نظر أخرى حول الأمر". فالمعارضة لم تكن غير مألوفة.

"ما هذا؟" سأل رمسفلد بحدة متوجهاً نحو الرجل الذي كان قد أراد تكليفه بإدارة حملته الرئاسية قبل 20 سنة.

قال آدلمان، ساخطاً، إنه بعد أربع سنوات من العمل، بعد 9/11، وبعد كل جهيد التغيير والتحويل، مع حرص رمسفلد على تكريس ربما ما لا يقل عن ربع وقته على تقرير الدفاع الرباعي، الكيو دي آر (QDR) والنائب ما يصل إلى نصف وقته، "أجد من غير القابل للتصديق ألا يكون شيء مرشحاً للاختزال".

"من قال لك ذلك؟"

في البداية لم يرغب أدلمان في استثناء ريان هنري، فقال ربما كان قد أخطأ الفهم.

عاد رمسفلد إلى التأكيد: "من قال ذلك؟"

رد آدلمان، وهو يشير إلى هنري الذي كان جالساً في الخلف، منتحياً جانباً، "إن ريان هنري الجالس هناك قال لنا ذلك".

"الصورة ليست جاهزة" قال رمسفلد.

"يا للمفاجأة! آسف. ظننت أنها في طريقها إلى المطبعة".

"حسناً، لم يُجِزْها الرئيس بعد".

قال آدلمان: "إذا كانت في طريقها إلى الطابعة فإنها قطعت، على ما يبدو، شوطاً بعيداً، سواء أأجازها الرئيس أم لا".

"لنقل ذلك" تحدى رمسفلد. "لنفرض أن ليس هناك أي اختزالات".

رد آدلمان: "أعتقد أن ذلك مدهش. فالعالم كله قد تغير. كان يُفترض أن نكون الآن في البنتاغون الجديد".

حدّق رمسفلد في آدلمان، غاضباً بوضوح. قال إن جميع مَنْ في المبنى كانوا قد وفقوا. أضاف "نتعايش جميعاً. أحياناً نكون بحاجة إلى تقليص وأحياناً لا يكون هناك أي سبب لمثل هذا التقليص".

بعد نحو ساعة كان مجلس التخطيط السياسي عاكفاً على الحديث عن التقرير الموجز الذي كان قد تلقاه من أبو زيد وكيسي. كلاهما كانا يقولان إنهما كانا يحققان تقدماً في العراق وإن الأشياء بدت سائرة على ما يرام.

قال وليمز: "مرة أخرى أعتقد أن لِكَنْ موقفاً مختلفاً".

"وما هو؟" سأل رمسفلد.

أفاد آدلمان بأن كيسي كان قد قال إن الملاك العسكري - ضباطاً ومجندين - كان يجري تبديله كل نحو تسعة أشهر أو أقل في المتوسط. "ولدى النظر إلى التاريخ، لا أجد أي حرب ضد حركة تمرد تم كسبها من قبل بلد دائب على تبديل عناصره مرة كل ستة أو تسعة أشهر".

"نحن لا نقوم بتبديل جميع الناس" قال رمسفلد، عندنا كيسي هناك".

رد آدلمان: "أنا لا أتحدث عن ذلك. أنا أتحدث عن الناس، عن الجنود".

"سأقول لك السبب الكامن وراء ذلك، قال رمسفلد" واصفاً عمليات تجنيد عناصر الجيش والمارينز وترقيتهم.

"أنا لا أتحدث عما يريد الجيش فعله وما ترغب قوات المارينز في القيام به" قال آدلمان "ما أنا بصدد الكلام عنه هو كسب الحرب. أنا لا أعرف أي حركة مناوئة للتمرد تستطيع أن تفوز بالاستناد إلى إستراتيجية كهذه".

"حسناً، أعتقد أنك أخطأت الفهم لأن عدداً كبيراً من الجنود يعودون بعد ذلك إلى مسرح العمليات في جولة ثانية" قال رمسفلد.

"ما الذي تعنيه بمسرح؟" سأل آدلمان.

"أعني مسرح عمليات القيادة المركزية" السنتكوم (CENTCOM)".

"مفهوم، هم يعودون، إذن، إلى أفغانستان. ليس هو ما أتحدث عنه".

"من المؤكد أن بعضهم يعود إلى العراق".

"مفهوم، ولكن هل يعودون إلى الحي الذي كانوا فيه؟ ما فُرَصُ حصول ذلك؟"

رد الوزير دون مراوغة وبصدق: "إنها شبه معدومة".

"تلك هي فكرتي".

"ما الذي تعنيه؟"

"أعني أن من الضروري أن يعرفوا من سيحاسبونه، قال آدلمان. "لابد لهم من معرفة من يتعاملون معه. يجب أن يعرفوا من يراوغونه. إنه منزلق صعب. يتطلب وقتاً. ستة أشهر لا يعرفون شيئاً، تسعة أشهر؟"

سارع رمسفلد إلى قلب وجهه. لاذ بإيراد دراسة حديثة تبين أن أكثرية الإصابات كانت في الأشهر الأولى.

"ذلك يدعّم وجهة نظري، قال آدلمان.

"نعم إنه يفعل" أذعن رمسفلد.

أفاد غنغريتش بأن "الأمر لا يساوي مثقال ذرة" على الرغم من إنفاق كنز من القوة البشرية التنفيذية على صورة التقرير الدفاعي الرباعي (الكيو دي آر) الإستراتيجية.

نظر إليه رمسفلد بانزعاج.

تابع رئيس المجلس السابق يقول: "فقط العراق يهم فعلاً". ثم أضاف أن معيار الجدية تمثَّل بالأيام الـ132 التي لزمت للانتقال من السفير نغروبونتي إلى السفير

خليلزاد. وبعد ذلك قال ساخراً إن العراق كان "البلد الأهم" الوحيد "في العالم الذي تتوقف عليه السياسة الخارجية الأمريكية كلها، من الألف إلى الياء".

بعد الاجتماع، تعثر آدلمان برمسفلد في بهو البنتاغون. ألمح رمسفلد إلى رغبته في المزيد من الكلام.

"إلى اللقاء!" قال آدلمان.

وراء الكواليس أقر أعضاء مجلس الأمن القومي الرئيسون، في 13 كانون الاول/ديسمبر، ورقة سرية مصنَّفة تتضمن نحو عشر قواعد توجيهية واجبة التطبيق لدى تشكيل الحكومة العراقية الجديدة. لابد للوزراء في الحكومة الجديدة من أن يكونوا بعيدين عن الميليشيات أو القوى الخارجية مثل إيران وسورية. ويجب على الوزراء الجدد أن يكونوا أصحاب كفاءة مشهودة. من الضروري تشكيل الحومة بسرعة شرط ألا يكون ذلك على حساب النوعية؛ فوزير النفط، مثلاً، يجب أن يكون ذا تاريخ في تلك الصناعة.

بعبارة أخرى، كانت الولايات المتحدة عازمة على مواصلة دس أنفها في حكومة العراق صاحب السيادة.

في خطابه الرابع عن العراق في اليوم التالي، يوم 14 كانون الأول/ ديسمبر، بمركز ودرو ولسُن في واشنطن، قال بوش: "حين تتم كتابة تاريخ هذه الأيام سوف يجري تسليط الضوء، مرة أخرى، على حقيقة أن الولايات المتحدة دافعت عن حريتها الخاصة عبر توظيف الحرية من أجل تحويل أمم ودول بكاملها وقلبها من أمم ودول معادية إلى أخرى حليفة".

في العراق يوم الانتخاب، يوم 15 كانون الأول/ديسمبر، نحو 11 مليوناً أدلوا بأصواتهم لانتخاب أعضاء المجلس الوطني الذي كان سيدوم فترة أربع سنوات. بلغت نسبة المشاركين نحو 70 بالمئة، أعلى بكثير من معظم البلدان الديمقراطية الغربية.

علق الرئيس قائلاً: "ثمة فرحة عارمة".

في اليوم التالي كان عنوان الصفحة الأولى **للنيويورك تايمز**: "العراقيون، بمن فيهم السنة، يصوتون بأعداد كبيرة في يوم هادئ". طار بوش من الفرح. وخلال لقاء مع سفير العراق في الأمم المتحدة أعلن السفير: "اعتقد أنها كانت نقطة انعطاف" وأضاف منتشياً مع شيء من المبالغة "وبداية نهاية الإرهاب في العراق".

غير أن العنف بقي مستمراً، مع وقوع أكثر من 2500 هجوم إرهابي خلال شهر كانون الأول/ديسمبر، حسب الكلام الوارد في التقارير السرية المصنفة.

وفي اجتماع بغرفة العمليات علق رمسفلد قائلاً: "لم يعد لدينا أي انتخابات أخرى".

بعد ثلاثة أيام من الانتخابات، في 18 كانون الأول/ديسمبر، أدلى الرئيس بحديث ساعة ذروة تلفزيوني من المكتب البيضوي. بعد تسليط الضوء على النجاح الواضح للانتخابات، حاول تلخيص تاريخه للحرب، بادئاً بقرار الغزو، إطاحة صدام ومسألة أسلحة الدمار الشامل معترفاً صراحة بـ "أننا لم نعثر على تلك الأسلحة".

أقر بأن كثيرين كانوا، والحرب مستمرة، يجادلون بأن الولايات المتحدة كانت "تخلق مشكلات أكثر من تلك التي تحلها" عبر بقائها في العراق. رفض الفكرة. قال بوش: "قد تكون للنزعة الانهزامية توظيفاتها الحزبية، ولكنها غير مبررة بالوقائع" ثم أضاف: "إن التراجع قبل النصر من شأنه أن يكون تصرفاً طائشاً وغير شريف، وأنا لن أسمح به".

قبيل نهاية الحديث، أضاف بوش رسالة قال إنها موجهة إلى "أولئك الذين لم يكونوا مؤيدين لقراري القاضي بإرسال القوات إلى العراق منكم: لقد سمعت رأيكم المعارض، أعرف مدى عمق الشعور بهذا الرأي. ومع ذلك ليس ثمة الآن سوى خيارين اثنين أمام وطننا: إما النصر أو الهزيمة. والحاجة إلى النصر أكبر من أي رئيس أو حزب سياسي، لأن أمن شعبنا بات في الميزان. أنا لا أتوقع منكم أن تدعموا كل ما أفعله، غير أن لدي الليلة طلباً هو التالي: لا تستسلموا لليأس، ولا تتهاونوا في هذا النضال في سبيل الحرية.

"يمكن للأمريكيين أن يتوقعوا مني بعض الأشياء أيضاً. تبقى مسؤوليتي المقدسة متمثلة بحماية أمتنا، دولتنا، وذلك يستدعي مني أن أقْدم على اتخاذ بعض القرارت الصعبة. وأنا أرى عواقب تلك القرارات حين ألتقي جنوداً جرحى، من الرجال والنساء، ممن لا يستطيعون مغادرة أسرَّتهم في المشافي، ولكنهم يستجمعون القوة اللازمة للنظر في عيني وإعلان الاستعداد لإعادة الكرة. أرى العواقب حين أكلم الآباء والأمهات الذين يفتقدون فلذات أكبادهم كثيراً - ولكنهم يعبرون عن حبهم للجنود، عن إيمانهم بالرسالة، وعن دعوتهم لي إلى إنجاز المهمة.

"أعلم أن بعض قراراتي تمخضت عن خسائر مخيفة - وما من قرار تلك القرارت تم اتخاذه بخفة. أعلم أن هذه الحرب ملتبسة، مثيرة للجدل - غير أن كوني رئيساً لكم

يوجب علي أن أفعل ما أومن بأنه صحيح مسلّماً بالعواقب. ولم يسبق لي أن كنت أكثر يقيناً من أن أفعال أمريكا في العراق جوهرية وضرورية بالنسبة إلى أمن مواطنينا وسوف ترسي أساس السلم لأبنائنا وأحفادنا".

نادراً ما بدا على هذه الدرجة من الجدية والوقار.

في اجتماع مجلس الأمن القومي يوم 21 كانون الأول/ديسمبر 2005، قُدمت ورقة قواعد تشكيل الحكومة الجديدة إلى الرئيس الذي قال ملمحاً إلى قراره الواضح بعدم محاولة التأثير في نتائج انتخابات 15 كانون الأول/ديسمبر: "إن التأثير في الناخبين في انتخابات معينة شيء" والتأثير في تشكيل أي حكومة شيء آخر مختلف". بيّن بوضوح أنه أراد أن يلقي بثقله ونظر إلى السفير خليلزاد الذي كان مشاركاً في اللقاء الميديوي الآمن من العراق قائلاً: "نحن بحاجة، يا زال، أن نتعاون مع البريطانيين لا لتقرض حصائل أو نختار شخصيات، بل لصياغة محصلة". وكان يتعين على تلك المحصلة أن تكون منسجمة مع المبادئ. يا له من تمييز طريف! صياغة محصلة ولكن بدون فرضها. بعد ما يزيد على عامين ونصف كان واضحاً أن بوش والآخرين لم يكونوا مستعدين للسماح للسلطة في العراق بأن تنزلق نحو جهة لا تحظى بقبولهم.

تحول النقاش نحو طينة الناس الذين يمكن أن يكونوا متوفرين في العراق، وترددت أصداء خيبة أمل عامة مرة أخرى إزاء غياب واشنطن أو جفرسون ما، بله جون آدامز أو قامات أقصر. كان ثمة طوفان حقيقي من الفساد. كان الفساد عقبة رئيسة. اتفقوا على ضرورة إضافة عدم الفساد إلى قائمة القواعد الخاصة بالعراق. تعين عليهم أن يهتدوا إلى وزراء ليس لهم تاريخ ارتشاء وقبض.

"مفهوم" قال بوش "ضعوا بند الفساد في قائمة المبادئ هذه، ثم بادر، أنت يا زال، إلى استخدام نفوذك للتطبيق".

جرى إلقاء المشكلة كلها في حضن السفير. لم يكن الرئيس سوى ضابط قضايا عنده. تابع بوش كلامه: "لابد لك، يا زال، من أن تتحلى بالذكاء في هذا الأمر. يتعين عليك أن تتصور أشياء معينة تكون كافية لدفع السنة إلى إعلان أن العملية ناجحة دون المبالغة في ممارسة - الضغط على الأكراد والشيعة بما يفضي إلى إفساد الطبخة كلها".

كانت تلك سلسلة أمور طويلة أخرى. كان بوش يريد مفاوضات عسيرة. كان زال يستطيع أن يهدد بقطع المساعدات الأمريكية، بأي شيء، شرط التوصل إلى حل.

جهاز هادلي في مجلس الأمن القومي درج على وضع تقرير عن الأحوال كل صباح لإطلاع الرئيس وبقي البند الأول ثابتاً حول العراق والإصابات. في تشرين الثاني/نوفمبر، كان 88 جندياً أمريكياً قد قُتلوا في العراق؛ في كانون الأول/ديسمبر كان العدد أقل. ثمة كان أيضاً تقرير أوضاع موفراً لبوش منتصف النهار وثالث في الليل.

غير أن التنبؤ بحركتي مد الهجمات وجَزْرها، وقد يكونان أفضل معايير مستوى العنف والتهديد، كان بالغ الصعوبة. في تشرين الأول/أكتوبر قفز عدد الهجمات إلى 3000. ثم انخفض إلى 2100 في تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد ذلك ما لبث طار من جديد إلى مستوى 2500 في كانون الأول/ديسمبر.

يوم رأس السنة، في 1 كانون الثاني/يناير 2006، قام بوش بزيارة مركز بروك الطبي للجيش في سان أنطونيو، تكساس، حيث كان أطباء وممرضات قد عالجوا 2300 إصابة من أفغانستان والعراق. كانت تلك المرة الـ 34 التي يزور فيها بوش الجرحى.

صادف جندياً شاباً كان جسمه محترقاً بنسبة 99 بالمئة، ووقف أمامه صامتاً ريثما لمدة 30 ثانية. فيما بعد، قال بوش لمعاونيه: "لم أعرف ماذا أقول، بوصفي أقوى رجل في العالم – لم يكن ثمة أي شيء أستطيع قوله" ثم جلس وصلى مع أهل الجندي، شكرهم على خدمتهم وغادر، منبهراً بروح العائلة.

لاحقاً، تحدث مع فريق من المراسلين. ثمة كانت ندبة على جبينه ناجمة عن تقليم الأشجار في مزرعته ووقع في خطأ أو وقاحة لفت الأنظار إلى جُرحه.

"كما ترون، ربما، جرحتُ نفسي، ليس هنا في المستشفى بل في صراع مع شجرة أرز. نجَحتْ الشجرة في التسبب بخدش صغير". سأل أحد الأطباء العسكريين عما إذا كان بحاجة إلى أي إسعاف، رد عليه بوش: "استطعت تجنب أي عملية جراحية كبيرة هنا".

مكتب طبيب البيت الأبيض، الدكتور ريتشارد جي توب، جنرال نجمة واحدة في فريق سلاح الجو الطبي، تابع وضع الجريح الذي كان الرئيس قد التقاه ليتمكن من أجراء الاتصالات الهاتفية أو إرسال الخطابات الشخصية. بعد وقت غير طويل، قام توب بإبلاغ بوش عن أن الجندي الذي كان قد رآه في مستشفى سان أنطونيو قد قضى نحبه.

تأثر الرئيس كثيراً. كان مدير اتصالاته، دان بارتلت، شاهداً على حزن بوش ومعاناته. إلا أن بوش والآخرين في البيت الأبيض بقوا شديدي الحرص على تجنب

الإفصاح علناً عن أي عذاب أو ألم يعاني منه الرئيس. كانوا يعتقدون بأن من شأن مثل هذا الكشف أن يشي بأن لديه شكوكاً.

غير أن أفراد أسر وأقارب بادروا عدداً من المرات في أثناء زيارات الجرحى إلى مجابهة الرئيس.

قال أحد الأقارب: "هل ترى؟" مشيراً إلى الجندي المشوه في سرير المستشفى. "يا له من ثمن باهظ!"

قال له آخر: "أنت تستطيع أن توقف هذا".

وفي مناسبة ثالثة قال له أحدهم: "وحدك أنت تستطيع أن تضع حداً لهذا".

رد بوش: "لا أستطيع أن أفهم لماذا يراودكم مثل هذا الشعور".

قال رمسفلد في إحدى المقابلات، مستذكراً زيارته الخاصة للمشافي العسكرية: "لا يستطيع المرء إلا أن يخرج من هناك وهو - سأرتب ما يحصل حسب الأولوية - مفعم أملاً، ممتلئ نشاطاً وزاخر بالنشاط، لا لشيء إلا لأن الجرحى هناك - بأكثريتهم الساحقة - تواقون إلى العودة إلى وحداتهم، فخورون بما فعلوه، واثقون من أنهم سيتعافون من جروحهم بطريقة أو أخرى. إن شخصاً فقد إحدى ساقيه في العراق، عاد إلى مدرسة القفز، تدرب من جديد، وذهب إلى العراق مرة ثانية. من المؤكد أن المرء يحصل على جرعة كبيرة من الأمل والقوة والإلهام. كذلك لا يسع المرء إلا أن ينظر إلى أولئك البشر الرائعين ويرى الأذى الذي لحق بأجسادهم فيتفهم مدى صعوبة عقد ربطة عنق أو ارتداء قميص أو جملة الأشياء البسيطة".

سألتُه: "إذن أنت متألم وتشعر بالمعاناة؟"

"بالتأكيد، كيف لا؟"

"في تلك اللحظات؟"

"مؤكد، يا إلهي. لا تستطيع - لا يستطيع أحد إلا أن يشعر بالألم، فيما أرى" قال رمسفلد. ثم أضاف: "تخرج، تستقل سيارة وتتحدث عن تجربة الأشخاص الذين التقيتهم، معشر الجنود، البحارة وعناصر المارينز، العائلات، كم هم باعثون على الأمل! كم هم مختلفون على صعيد شخصياتهم، ولكنهم يبقون قابلين للتنبؤ على صعيد احترازهم بخدمتهم. ونحن محظوظون جداً بمثل هذا الشعب".

هل سبق له أن تعرض للتحدي من قبل الجرحى أو أقاربهم كما كان قد حصل لبوش؟ سألته.

"بالتأكيد. بالتأكيد".

"ماذا قالوا؟"

قال رمسفلد "لا أعتقد أنني راغب في مناقشة الحوارات الخاصة. إلا أنهم ألمحوا إلى عدم موافقتهم على النزاع في أفغانستان أو الصراع في العراق. اختلاف شخصي".

سألته: وماذا تقول لهم؟

"يا إلهي، إنهم يمرون بمرحلة في حياتهم تشهد تعرض شيء أحبوه واهتموا به ودأبوا على رعايته للدمار، وبطريقة لم يسبق لهم أن توقعوها. وهكذا فإنك تستطيع، بالتأكيد، أن تتفهم حقيقة أن أي شخص في مثل ذلك الظرف سيعاني من بعض الاضطراب والتأرجح على الصعيد العاطفي، ويتوقف الأمر على الوتر الذي تلامسه والوضع الذي هم فيه حين تكون أنت هناك".

سألته: "هل يجعلك ذلك تعاني من انقلاب عاطفي؟ هل يخطر ببالك أن تطرح سؤال: لماذا أُشْغِل هذا المنصب؟

"لا" رد رمسفلد. "ثمة أشياء تثير ذلك السؤال في رأسي. ولكن ليس بتلك القوة".

"ما تلك الأشياء التي تثير السؤال؟"

رد بانزعاج: "لن أدخل في ذلك".

تبقى زيارة الجرحى في المشافي العسكرية جزءاً من مهمة وزير الدفاع، قال رمسفلد. ثم أضاف: "أتفهم ذلك تاريخياً. أتفهمه من خدمتي السابقة هنا. أتفهمه اليوم. لذا فأنا لا أنصرف ولسان حالي يوحي بأن هذا شيء يتعين علي أن أقذفه ملفوفاً بمنشفة أو أي شيء".